الفتوح العربية الكبرى

كيف غيّر انتشار الإسلام العالم الذى نعيش فيه

تـألـيـف : هيـو كيـنـيدى

ترجمة وتقديم وتعليق : قاسم عبده قاسم



٢٠٠٨

المحتـــويات

مقدمة المترجم 7
إهـــداء 11
شكر واعتراف بالجميل 13
مقدمة المؤلف 15
تصدير : ذكرى أشياء ماضية 29
١ – أسس الفتوح 58
٢ – فتح الشام وفلسطين 101
٣ – فتح العراق 145
٤ – فتح مصر 201
٥ – فتح إيران 245
٦ – داخل المغرب 285
٧ – عبور نهر جيحون (أموداريا) 319
٨ – الطريق إلى سمرقند 357
٩ – المشرق الأقصى والمغرب الأقصى 409
١٠ – الحرب فى البحر 445
١١ – أصوات المقهورين 473
١٢ – خاتمة 499
هوامش 517
ملحق الصور 519
ملحق الخرائط 537

(١)

أسس الفتوح

يرجع أصل الفتوح الإسلامية فى الشرق الأوسط إلى شبه الجزيرة العربية، كما أن معظم أولئك الذين حاربوا فى المراحل الأولى من الفتوح جاءوا من شبه الجزيرة العربية أو من صحراء الشام (بادية الشام) الواقعة شمالى شبه الجزيرة. ولم يحدث فى أى وقت سواء قبل الفتوح الإسلامية أو بعدها أن قام سكان هذه المنطقة بغزو الإمبراطوريات الضخمة فيما وراء الحدود الغامضة والمتغيرة لموطنهم. فللمرة الأولى والوحيدة عبّأ ظهور الإسلام الطاقات العسكرية وصلابة الناس فى شبه الجزيرة العربية لغزو العالم الذى كان يحيط بهم. فما نوع المكان الذى أنتج هؤلاء المحاربين ، وأى صنف من الرجال كانوا هم بحيث استطاعوا أن يخلقوا هذه الثورة الهائلة فى التاريخ الإنسانى ؟

شبه الجزيرة العربية شاسعة . ويمتد خط مستقيم من جنوب شرق بلاد العرب عند رأس الهد فى عُمان إلى حلب فى شمال غرب بادية الشام على طول أكثر من ألفين وخمسمائة كيلو متر . وبالاعتماد على ظهور الدواب فى السفر والتنقل ، كانت الرحلة على امتداد هذا الطريق تستغرق ما يزيد على مائة يوم من السفر المتواصل . ولم يكن تنظيم الرجال والجيوش فوق مساحة شاسعة كهذه أمرًا سهلاً ؛ وكانت الظروف الخاصة فحسب للفتوح الإسلامية الباكرة هى التى جعلت ذلك ممكنًا .

والكثير من مناطق شبه جزيرة العرب صحراء، بيد أن الصحراوات كلها ليست متماثلة . فإذا كان الإنويت Inuit لديهم ألف كلمة للدلالة على الأنواع المختلفة من الجليد،

فلابد أن بدو شبه الجزيرة العربية لديهم تقريبا مثل هذا العدد من الكلمات الدالة على أصناف مختلفة من الرمال، والأحجار، والحصباء . فبعض الصحراوات، مثل صحراء الربع الخالى الشهيرة فى وسط جنوب شبه الجزيرة مكونة من الكثبان الرملية، وهى فضاء لايمكن لأحد أن يعيش فيها، ولايعبرها غير أكثر الناس صلابة ، أو أكثرهم حماقة. بيد أن معظم الصحراء ليست كذلك بالضبط. إذ إن السطح فى أغلب الأحوال يتكون من الحصباء بدلاً من الرمال، وهى مقفرة ولكن من السهل عبورها. وبالنسبة للغريب يبدو معظم فضاء الصحراوات جرداء قاسية . وغالبًا ما تكون الأرض مسطحة أو تحددها التلال – منخفضة ومنحدرة ومجهولة – بها قليل من النباتات فى الوديان ، سواء كانت مسطحة أو صخرية ، فكل منها تقدم إمكانيات مختلفة. ومشهد الفضاء الصحراوى فى شبه الجزيرة العربية كان معروفًا تمامًا لسكانه، ويمكننا أن نقول إنهم كانوا يدللونها. وقد كان من دواعى سرور شعراء شبه الجزيرة العرية قديمًا أن يطلقوا الأسماء على التلال والوديان حيث كانت مخيمات قبائلهم ومضاربها ، أو حيث كانوا يحاربون ، أو يتبادلون الحب. فبالنسبة لهم، كانت الصحراء أرض الفرصة ، وأرض الخطر.

وجرى العرف على تسمية البدو الناطقين بالعربية Bedouin فى اللغة الإنجليزية ، وهذا هو المصطلح الذى سوف استخدمه . وقد سجلت أخبار العرب فى الصحراء منذ أيام الآشوريين فى بواكير الألف الأولى قبل الميلاد فصاعدًا. وكانوا ملمحًا دائمًا وثابتًا من ملامح الفضاء الصحراوى، ولكن بالنسبة للناس المستقرين فى منطقة الهلال الخصيب ، الذين نعتمد على كتاباتهم فى الحصول على المعلومات ، كانوا هم «الآخر» إلى حد كبير للغاية – بعيدين، وفى بعض الأحيان يغيرون على المناطق المستقرة للنهب والسرقة ، ولكنهم دائمًا ما كانوا يعودون، أو يجبرون على العودة إلى عزلة صحراواتهم . وللبدو قليل من التاريخ السياسى وفى العصور القديمة كان زعماؤهم يعيشون ويموتون دون أن يتركوا أثرا من الازدهار ، سوى فى ذكريات أتباعهم وأبناء قبائلهم. وفى القرن الثالث الميلادى نبدأ فى العثور على عرب يتركون انطباعًا أكثر وضوحًا على كتب التاريخ . ففى أثناء هذه الفترة قامت الملكة زنوبيا ، من قاعدتها فى مدينة بالميرا

التجارية الكبرى القائمة فى واحة كبيرة فى أعماق بادية الشام، بتأسيس مملكة ضمت معظم الشرق الأوسط. وتطلَّب الأمر القيام بحملة ضخمة قام الامبراطور الرومانى أوريليان Aurelain بتجريدها سنة ٢٧٢م لكى يعيد إخضاع هذه المنطقة للحكم الرومانى . كانت إمبراطورية زنوبيا مؤقتة ، ولكن من حين لآخر ، كان الناطقون بالعربية يُظهرون قدرتهم على الغزو، وباختصار ، فرض سيطرتهم على مدن الهلال الخصيب.

وفى المناطق الصخرية جنوب شرق دمشق ، حيث تخلى صخور البازلت السوداء فى حوران الخصيبة مكانها للحصباء ورمال بادية الشام، توجد قلعة نيمارا الرومانية . وكانت نيمارا واحدة من أبعد المواقع فى العالم الرومانى ؛ فهى بعيدة عن أروقة دمشق ونافوراتها ولذلك كانت موقعًا منعزلاً ، يكاد يكون تائها فى الصحراء الخاوية الجرداء التى تمتد حتى العراق. وخارج أسوار القلعة توجد مقبرة بسيطة وعليها شاهد قبر منقوش. والنقش مكتوب بالخط النبطى المعروف فى البتراء، ولكن اللغة المكتوب بها لغة عربية واضحة. وهى تخليد لذكرى امرؤ القيس بن عمر ملك العرب جميعًا ويزعم إن غزواته طالت أراضى حِمْيَر فى اليمن. كما يخبرنا النقش أنه مات فى «نعيم» سنة ٣٢٨م. وشاهد القبر مثير للاهتمام إلى أبعد حد : فهو الوثيقة الوحيدة من تلك الفترة، وهو يبين تطور فكرة العرب بوصفهم جماعة لهم هويتهم الخاصة المنفصلة ؛ والمتمايزة عن الرومان والأنباط وغيرهم. ونحن لانعرف ما إذا كان امرؤ القيس قد مات مسنًا، فى خيمته ، أم فى أثناء غارة معادية ضد بلاد الشام ، أو رحلة تجارة سلمية فى العالم الرومانى، أو حسبما تقترح بعض المصادر العربية ، باعتباره واحداً ممن اعتنقوا المسيحية ، ويرمز مكان دفنه إلى الهوية المنفصلة للعرب القدامى وتفاعلهم الوثيق مع الرومان والفرس الذين حكموا المناطق المستقرة التى كان على حدودهم مواطنهم الصحراوية.

وفى القرن السادس الميلادى تطور هذا الوعى بالذات الناشئ عند العرب بشكل أكبر . ففى هذا الوقت كان الهلال الخصيب محكومًا بإمبراطوريتين كبيرتين، البيزنطيون فى بلاد الشام وفلسطين والفرس الساسانيون فى العراق. وكانت لدى كل

من هاتين القوتين العظميين مشكلات فى التعامل مع البدو على امتداد الحدود الصحراوية لممتلكاتهما . وكان الرومان ، بكفائتهم النمطية، قد أقاموا القلاع وبنوا الطرق بحيث يمكن لقواتهم أن تحرس الحدود ، وتحافظ على المدن الغنية والأراضى الزراعية فى الداخل آمنة من غارات البدو. وكان من الصعب الحفاظ على هذا النظام؛ فقد كان من العسير إبقاء الرجال فى قلعة نائية مثل نيمارا فضلاً عن أن هذا كان أمرًا مكلفًا . ولو كنا قد عرفنا المزيد عن الفرس الساسانيين ، فربما وجدنا أنهم واجهوا مشكلات مماثلة هم أيضا.

وفى أثناء القرن السادس ، حاولت كلتا القوتين العظميين أن تجد سبلاً بديلة للتعامل مع الحدود الصحراوية ، وتحولتا إلى الممالك التابعة. وقد نجحتا فى استخدام العرب فى التعامل مع العرب. فعلى حدود بلاد الشام كان البيزنطيون قد أقاموا سلالة حاكمة قوية يعرفها التاريخ باسم الغساسنة . فقد منحوا زعماء الغساسنة لقب «فيلارخ» الإدارى اليونانى وكان يتم دفع إتاوات مالية لهم لكى يحتفظوا بالعلاقات الودية مع بدو شبه الجزيرة العربية. ومن خلال المزج بين دفع الأموال، والدبلوماسية وعلاقات القربى والتحالفات ، حافظ الغساسنة على الحدود الصحراوية، وعملوا باعتبارهم منطقة فاصلة بين الحكومة البيزنطية والبدو. كما أنهم تحولوا إلى المسيحية، على الرغم من أنهم كانوا على مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتى) الذى كانت القسطنطينية تعتبره مذهبا خارجًا (هرطقة) . وقد عاش زعماء الغساسنة أسلوب حياة شبه بدوى جذابًا . ففى الربيع عندما تكون أطراف الصحراء قد اكتست اللون الأخضر الحى، مع نمو العشب الجديد ، كانوا يضربون خيامهم فى الجابية بمرتفعات الجولان وكان زعماء القبائل يفدون لزيارتهم، ولإسداء الاحترام ، ولتلقى عطاياهم المالية بالتأكيد. وفى أوقات أخرى قد يعقدون محكمة بالقرب من الضريح الكبير لسان سرجيوس المحارب، فى الرصافة شمالى بادية الشام[1]. ولم يكونوا يستقرون فى البلدة الرومانية ولكنهم بنوا قاعة حجرية على بعد حوالى ميل شمالاً . وكانوا يضربون خيامهم حول هذه القاعة وكان العرب يفدون لزيارة الضريح وزيارة الفيلارخ الغسّانى.

وعلى مسافة ألف ميل عبر بادية الشام شرقًا، كان اللخميون، الذين يتولون أمر الأطراف الصحراوية لحساب الملوك الساسانيين، يعقدون بلاطهم أيضًا. ويبدو أن اللخميين كانوا أكثر استقرارًا من الغساسنة كما كانت عاصمتهم فى الحيرة ، حيث تتقابل الصحراء مع الأرض الزراعية الغنية على امتداد نهر الفرات الأدنى، بلدة عربية حقيقية. وكان اللخميون مسيحيين مثل الغساسنة . كما كانوا رعاة عظماء للأدب العربى الباكر. فقد كان الشعراء ورواة القصص يفدون إلى بلاطهم، وربما كان هذا هو المكان الذى شهد اكتمال الخط العربى، الذى لم يلبث أن جرى استخدامه لكتابة القرآن وتسجيل أعمال الفاتحين الأول. لقد كانت هناك هوية عربية آخذة فى الظهور ، ولم يكن العرب مستعدين بعد لغزو الإمبراطوريتين العظيمين، ولكن كانت لديهم لغة مشتركة ، وثقافة مشتركة تكونت مع مرور الزمن.

عاش كثير من العرب بدوًا فى قبائل ، يحيون أسلوب حياة بدويًا فى حالة من الفوضى ، بلاحكومة ، وقد اعتمد هؤلاء البدو على قطعان حيواناتهم التى كانت أهمها الخراف والجمال. وأدت الأنواع المختلفة من الحيوانات إلى نماذج مختلفة من العيش. وكانت تربية الجمال تمثل أسلوب دعم البدو وإعاشتهم فى جوف الصحراء. إذ يمكن للجمال أن تبقى أسبوعين أو أكثر بدون ماء، وهو ما منح البدو قدرة على التحرك بعيدًا عن الأراضى المستقرة وجعلهم ينعمون بميزة مراعى الكلأ المتناثرة ومصادر الماء البعيدة فى مناطق لايمكن لأى جيش من جيوش القوى الإمبراطورية أن يأمل فى ملاحقتهم فيها. أما الماشية والماعز فإنها أقل قدرة على تحقيق الاكتفاء الذاتى. فهى تحتاج إلى أن تشرب يوميًا ، ولايمكن أن تعيش على العشب الجاف القليل الذى يمكن أن يعول الجمال وتحتاج إلى أن تؤخذ إلى الأسواق عندما يحين الوقت لبيعها وذبحها . أما البدو الذين يربون الماشية فيعيشون على مسافة معقولة من المناطق المستقرة ولهم صلات أوثق مع أهل المناطق المستقرة من البدو الذين يربون الجمال فى جوف الصحراء . وكان بدو الجمال ينعمون بالاستقلال التام أكثر من غيرهم. وإذ كانوا محصنين تقريبا ضد الهجوم فى عزلة صحراواتهم، فقد كانوا يمثلون الأرستقراطية الحربية الحقيقية بين العرب.

كانت القبائل، بدلاً من الدول والإمبراطوريات، هى القوى السياسية السائدة فى الصحراء وفى بعض الأحيان، تسهِّل قراءة الروايات التاريخية التى ترجع إلى السنوات الباكرة من تاريخ الإسلام والفتوح الكبرى، وجود انطباع بأن الولاءات القبلية والمنافسات القبلية كانت مهمة فى تحريك العرب إلى القتال والغزو بقدر ما كان الدين الإسلامى أو الرغبة فى الحصول على المغانم . ولكن الحقيقة، أن الولاءات القبلية كانت أكثر تعقيداً وتنوعاً مما تبدو للوهلة الأولى. لقد صور العرب أنفسهم على أنهم يعيشون فى قبائل . فكل واحد من أبناء القبائل يؤمن أن جميع أفراد القبيلة ينحدرون من جد مشترك ينتسبون إلى اسمه ، وبذلك تسمى قبيلة تميم نفسها، ويسميها الآخرون ، «بنو تميم». والحقيقة أن هذه الصورة المتخيلة للذات كانت مضللة إلى حد ما لأن القبائل الكبرى مثل تميم لم تتجمع معاً أبداً ، ولم يكن لها زعيم واحد كما لم تكن هناك عملية مشتركة فى اتخاذ القرار. وكانت الخيارات الحاسمة بشأن مكان مضارب خيام القبيلة أو أين تجد الكلأ والمرعى ، أو كيف تتجنب الأعداء، أموراً تبت فيها مجموعات صغيرة فى الخيام، بل كان يتم حسمها بواسطة عائلات منفردة . وعلاوة على ذلك ، لم تكن عضوية القبيلة تحسم على أساس الأصل البيولوچى وحده . وكان بمقدور الرجال الانتقال من القبيلة للالتحاق بجماعات قبلية جديدة ، وقد حدث هذا بالفعل . وربما كان الزعيم الناجح يجد أن قبيلته زادت زيادة كبيرة على حين يجد الزعيم الفاشل الرجال ينفضّون عنه . وعلى أية حال ، فإن الرجال الذين كانوا يفكرون فى الروابط البيولوچية ، لم يكونوا يقولون إنهم غيروا القبيلة وإنما يظلون دائماً جزءاً منها على نحو ما .

والواقع ، أنه لم يكن ممكنا للرجل وعائلته أن يعيش فى الصحراء بدون رابطة القربى القبلية . لقد كانت هذه بيئة قاسية بشكل لايمكن تخيله . فقد كان من الممكن أن تموت الحيوانات ويذبل العشب، وتجف الآبار ويهجم الأعداء. ولم تكن هناك قوة شرطة ، حتى لو كانت فاسده وتعوزها الكفاءة، ولايوجد حاكم يمكن للضحية أن يلجأ إليه: كانت هناك فحسب روابط القربى، سواء أكانت حقيقية أم خيالية ، هى التى يمكن أن

تحمى الإنسان ، وتقدم المساعدة وقت الحاجة، كما توفر الحماية أو التهديد بالانتقام والثأر فى وقت الهجوم . لقد كان الرجل الذى لا عشيرة له ضائعًا . وفى أيام الإسلام الأولى عملت القيادة بعدة سبل على تدمير الولاء القبلى أو التخفيف منه على الأقل. فقد كان من المفروض أن تكون الأمة الإسلامية بديلاً عن القبيلة ، لاتقوم على أساس الأصل والنسب ولكن على أساس الالتزام بالدين الجديد، والتسليم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وسوف توفر الأمة الحماية والأمن الذى كانت القبيلة توفره للناس فيما سبق . والحقيقة أنه لم يكن من السهل تقويض الولاءات القبلية التى خدمت الناس بهذا الشكل الجيد على طول الزمان حتى ذلك الحين. وفى السنوات الباكرة من الفتوح ، حارب الناس فى مجموعات قبلية وتجمعوا حول رايات قبائلهم فى ساحة المعركة . وفى خضم هذه الحروب لابد وأن أبناء قبيلة تميم، على سبيل المثال ، قد حاربوا إلى جانب أبناء قبيلتهم الذين لم يكونوا قد قابلوهم وربما لم يسمعوا عنهم أبداً من قبل. وعندما تم توطينهم فى المدن العسكرية الجديدة فى البصرة والكوفة فى العراق أو الفسطاط فى مصر، تم وضعهم فى مجموعات قبلية. وعندما تطلب الأمر الصراع من أجل الموارد، ومن أجل الرواتب والغنائم ، اكتسبت المنافسات القبلية كثافة وحشية قاسية نادراً ما حدثت فى مجتمع الصحراء الأكثر انفتاحاً وبعثرة . لقد كان التضامن القبلى، الذى كان أبعد ما يكون عن التقلص بسبب الدين الإسلامى الجديد، قد تعزز على نحو ما بسبب أحداث الفتوح. وعلى أية حال، سيكون من الخطأ أن نبالغ فى تقدير الدور الذى لعبته القبائل . ففى الحقيقة كانت الولاءات القبلية ذات أهمية حاسمة بالنسبة لبعض الناس فى بعض الأوقات ، وكانت مسألة تغيب فى مجاهل النسيان أحيانا .

كانت القبائل تحت قيادة الشيوخ (الزعماء)، وعادة ما كان الواحد منهم يسمى الشريف فى العصور الإسلامية الباكرة. وكانت الزعامة فى القبيلة إنتخابية ووراثية فى الوقت نفسه . فكل قبيلة، أو بطن من قبيلة، كان لها حاكم من ذوى القربى، أخوة وأبناء عمومة عادة ما كان يتم اختيار الزعيم من بينهم. وبينما لم يكن هناك انتخاب رسمى ،

إذْ كان أبناء القبيلة يعلنون ولاءهم لمن هو أكثر قدرة أو أوفر حظًا ، من أبناء العشيرة الحاكمة . ومن المؤكد أن الزعماء الذين كان يتم اختيار، بسبب قدرتهم ، كانوا قادة عسكريين ، بيد أن الشجاعة أو المهارة في ميدان المعركة لم تكن الخصال الوحيدة المطلوبة. كان المطلوب في الزعيم أن يكون ماهرًا في التفاوض ، وأن يحل المنازعات بين أتباعه قبل أن تخرج عن السيطرة ، وأن يتعامل مع أبناء القبائل الأخرى، بل ومع السلطات الإمبراطورية. وكان لابد للزعماء أن يتمتعوا بالذكاء – ذلك النوع من الذكاء الذي يعني أنهم يعرفون متى أمطرت السماء في الصحراء المتقلبة حديثًا ، وأين يمكن أن يجدوا مساحات العشب الصغيرة والنضرة التي تعني أن بوسع أتباعهم وحيواناتهم أن تأكل وتشرب جيدًا. ولعمل هذا، كان لابد للزعيم الناجح أن يبقى خيمته مفتوحة . وكان الكرم المشهور لدى البدو جزءًا مهمًا من استراتيجية البقاء المعقدة . فقد كان من المؤكد أن ينعم الضيوف بالطعام والتسلية ولكن في مقابل أن يقدموا معلومات عن مناطق العشب والكلأ ، والشئون الحربية والمنازعات ، والأسعار وفرص التجارة . وبدون شبكة الاتصالات غير الرسمية هذه، لم تكن أخبار ظهور الإسلام لتنتشر أبدا في أنحاء صحراء شبه الجزيرة العربية الخاوية تقريبًا، ولم يكن ممكنًا على الإطلاق تجميع الجيوش التي كان عليها غزو الإمبراطوريتين العظميين .

وباستثناءات قليلة جدًا، يمكن وصف الذكور البالغين من بدو شبه جزيرة العرب بأنهم جنود. فقد كان يتم تعليمهم منذ نعومة أظفارهم ركوب الخيل، واستخدام السيف، والقوس ، والسفر الشاق ، والنوم الخشن، والعثور على طعامهم حيثما يمكنهم . وفي ظروف المنافسة القبلية لم يكن هناك مدنيون . وقد عاش بدو شبه الجزيرة في خيام ليست بها ألوان أو رسوم ولم يبنوا أية مبانٍ: إنهم مختفون بالفعل من السجل الأثري. وقد امتازوا ، على أية حال، في شكل فني رئيسي: الشعر . وشعر عرب الجاهلية شكل فني فريد ومُركّب. وغالبا ما شاع بين النقاد العرب المحدثين باعتباره نموذج الشكل الشعري، الذي يستحوذ على الإعجاب أكثر من غيره وتتم محاولة تقليده . وقد تساءلت بعض الأبحاث الحديثة عن مدى أصالته ، بيد أن الاتفاق العام على أن بعض المادة على الأقل تقدم شاهدًا على القيم والمثل العُليا وعقلية العرب قبل الإسلام.

وقد أكد النقاد العرب اللاحقون على الأهمية المركزية للشعراء فى هذا المجتمع . وثمة ناقد أدبى عربى كتب فى القرن التاسع الميلادى الثالث الهجرى ، لاحظ أنه فى الجاهلية كان الشعر بالنسبة للعرب ديوان معارفهم، ولكن ابن رشيق ، الذى كتب فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى، يصف أهمية الشعر بالنسبة لقومه بقوله :

«عندما كان يظهر شاعر فى عائلة من العرب، لابد أن تجتمع القبائل العربية المجاورة لتلك العائلة متمنين لهم الفرح بحظهم السعيد. وتقام الولائم ، وتضم نساء القبيلة أيديهن متشابكة، ويعزفن على المزاهر مثلما يفعلون فى حفلات الأعراس ويقوم الرجال والصبية يهنئ كل منهم الآخر: لأن الشاعر كان بمثابة دفاع عن شرفهم أجمعين، وسلاحًا يدرأ عنهم الإهانة ويصون اسمهم ووسيلة للحفاظ على بقاء أفعالهم المجيدة ويؤسس شهرتهم إلى الأبد»(٢).

والحقيقة أن الشاعر كان يقوم بعدة وظائف مهمة ، تشجيع التضامن القبلى وروح الجماعة، والدفاع عن سمعة قبيلته ويحفظ لهم ذكريات الازدهار.

والشعر راسخ فى بيئة بدو شبه الجزيرة العربية الصحراوية. والكثير منه ملتزم بالصياغة الصارمة للقصيدة التى يمكن أن تصل إلى مائة بيت ، على لسان المتكلم أى الشاعر الذى يصف فيها حبه ومغامراته ، وامتياز راحلته ، وأمجاد قبيلته أو من يتولى حمايته ورعايته. والفضائل التى يتباهى بها هى فضائل الأرستقراطية المحاربة. فهو شجاع لايغشاه الخوف ، وهو بالطبيعة يمكنه تحمل المشاق الجسام ، وهو يتمالك نفسه بشكل يثير الإعجاب، كما أنه عاشق لا يقاوم وصياد عظيم . وغالبًا ما يكون الشعراء مخربين ، بل إن منهم شخصيات خارجة على القانون، يغوون زوجات الرجال الآخرين بحماسة مُتبجحة، وغالبًا ما يرون أنفسهم متوحدين، رجل وحيد مع راحلته ضد العالم بأسره . وليس هناك ما يدل على وجود ديانة رسمية ، ولا ذكر للأرباب ، وإنما قوة القدر الأعمى فحسب، والجمال الذى يحمله فضاء الصحراء بأخطاره وتهديده.

ويمكن أن نتحول لنرى مثالاً على شعر المعارك فى تلك الفترة إلى قصيدة تُنسب إلى عامر بن طفيل(*). وكان معاصراً للنبى محمد وكانت له ولقبيلته مراعى بالحجاز حول مدينة الطائف. ويبدو أن الكثير من سنى حياته قد قضاها فى المعارك ، وعلى الرغم من أنه مات ميتة سلمية، فإن أباه وعدداً من أعمامه وأخوته لقوا مصارعهم فى خضم الصراعات القبلية . وفى إحدى قصائده يُعربد فى هجوم شنه فجراً على أعداء قبيلته(*):

صَبَحْناهم بكل أقبّ نهد	ومُطرَّد له يَقدُ الحديدُ
وأبيض يخطف القَصَرات عَضْب	رقيق الحد زيَّنه غمُود
وكل طِمرّة خَفِقٌ حشاها	مُلملمةٌ تلاقيها بعيد
لقينا جمعهم صُبحا فكانوا	كمثل الضأن عاداهن سيد
فغُودر منهم عمروٌ وعمروٌ	وأسود والكُماة بها شهود
وعبد الله غُودر وابن بشر	وعتَّاب ومُرّة والوليد
لقيناهم ببيض مرهفات	نقتلهم بها حتى أبيدوا
وأردفنا نساءهم وجئنا	وقد دميت من الخمش الخدود(٣)

أو فى مناسبة أخرى :

لقد تعلم الحرب أنى ابنها	وأنى الهُمام بها المُعلم
أنى أحُل على رهوة	من المجد فى الشرف الأعظم
وأنى أشمُّص بالدارعين	فى ثورة الرهج الأقتم
وأنى أكرُّ إذا أحجموا	بأكرم من عطفة الضيغم

(*) النص العربى من ، ديوان عامر بن الطفيل ، تحقيق تشارلز لايل (قدم لها وترجم التعليقات إلى العربية الدكتور محمد عونى عبد الرؤوف) مركز تحقيق التراث – دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٢م.

وأضــــر بـالســـــيف يوم الوغـــى	أقــــــدُّ بـه حلـــــــق المبًّـــــرم
فـهــذا عـتـادى لو أن الفـتــــــى	يُعـمًّـــر فى غـيـــر مـــا مـهـــرم
وقــــد علم الحىُّ من عـــامـــــر	بــــأن لـنـــا ذروة الأجـــــسم
وأنا المصـاليت يــــوم الوغـــــى	إذا مـــا العـــوايـر لم تُقـــدم(٤)

هذه ، إذن كانت القيم التى يتحلى بها الكثير من بدو شبه الجزيرة العربية الذين شاركوا فى الفتوح الإسلامية الباكرة . فالشعراء يمجدون السرعة والقوة فى المعركة وامتياز جيادهم. وهناك أيضا تأكيد قوى على الجسارة الفردية . والمحارب فى الشعر يدافع عن قبيلته ، ويُشتت القبائل المنافسة ؛ ولكن ربما كان ما يهمه أكثر من أى شىء آخر التغنى بشجاعته وسمعته الخاصة. ولابد أن جيوش الإسلام قد أخذت معها إلى ساحة المعركة الكثير من هذه الأفكار نفسها، لاسيما الاهتمام بالشهرة على مستوى الفرد وعلى مستوى القبيلة على السواء. وفى وعيهم أو لا وعيهم كانوا يدركون الدور الذى يلعبه الشعراء المحاربون فى الجاهلية باعتبارهم نماذج يقتدى بها.

لقد كان هذا الشعر دالاً أيضًا على الطريقة التى تذكروا بها الأحداث وبالتالى على الطريقة التى نحاول بها أن نفهمهم . فليس هنـاك اهتمام بالاستراتيجية الكليـة، أو رواية عامة عن تقدم المعركة ، وإنما اهتمام لانهائى بالأفراد ومواجهاتهم مع العدو.

وبينما الكثير من أراضى شبه الجزيرة العربية صحراء، فإن شبه الجزيرة تضم أيضًا بعض الأراضى والمساحات المختلفة على نحو مدهش . ففى مرتفعات اليمن فى الركن الجنوبى الغربى، وأجزاء من عُمان فى الجنوب الشرقى، تجتذب الجبال العالية ما يكفى من الأمطار لوجود الزراعة الدائمة . وهنا عاش الناس، كما لايزالون إلى اليوم، فى قرى مبنية بالحجر تشرف على الحواف الصخرية ، ويزرعون المحاصيل على مصاطب على جوانب التلال شديدة الإنحدار . وكان أهل القرى يتجمعون فى قبائل ، مثل عرب الصحراء ، بيد أنهم لم يكونوا من البدو. ومن المستحيل أن نعرف نسبة العرب الذين انضموا إلى جيوش الفتح والذين جاءوا من هذه المجتمعات المستقرة .

وفى العصر الحديث، يكاد يكون من المؤكد أن سكان اليمن بمساحته الصغيرة أكثر من سكان السعودية بمساحتها الشاسعة ، ويمكننا أن نكون واثقين أن كثيرا من الفاتحين ، لاسيما أولئك الذين جاءوا إلى مصر ، وشمال أفريقيا، وإسبانيا جاءوا من مجموعات لم تكن من بدو شبه الجزيرة العربية على الإطلاق ، وإنما كانت عائلاتهم تمارس الزراعة على مدى الأجيال فى حقولهم الصغيرة الخصيبة.

وكان للناس فى الجنوب المستقر تراث سياسى يختلف تمامًا عن تراث البدو فى بقية أنحاء شبه الجزيرة . فمنذ بداية الألف الأولى قبل الميلاد، كانت هناك ممالك راسخة مستمرة فى هذه المنطقة ، ومعابد مشيدة بالأحجار الصلبة ، وأعمدة كبيرة مربعة من الأحجار ، وقصور وقلاع، ونقوش باقية تطورت لكى تسجل أعمال المؤسسين المجددين(٥). كان هذا مجتمعًا كانت تتم فيه جباية الضرائب وتعيين رجال الإدارة . وفى ذروة أيام ازدهار تجارة البخور العظمى فى القرون الأخيرة قبل الميلاد، وُجد خط بأكمله من المدن التجارية على امتداد حافة الصحراء اليمنية ، وهى مدن قوافل كانت تمر من خلالها العطور الثمينة، واللبان والمُر على ظهور قوافل من الجمال من الشاطئ الجنوبى الوعر، حيث توجد أشجار صغيرة ضامرة تنتج الصمغ الثمين، فى اتجاه موانئ البحر المتوسط مثل غزة ، حيث كانت توجد الأسواق . كان هذا أيضا مجتمعًا يستطيع أن ينظم مشروعات ضخمة فى الهندسة المدنية مثل سد مأرب العظيم. وهنا على الحواف الرملية للربع الخالى، كان يتم تجميع مياه الأمطار المتساقطة على مرتفعات اليمن، وتوزع من خلال واحة اصطناعية لكى توفر مياه الشرب ولرى المحاصيل.

وبنهاية القرن السادس الميلادى، عندما بدأ النبى محمد دعوته، كانت الأيام المجيدة لممالك جنوب شبه الجزيرة العربية قد ولت ، فمع القرن الميلادى الأول كانت تجارة البخور قد تحولت عندما كان تحسن الملاحة وفهم الرياح الموسمية قد جعل الطريق البحرى فى البحر الأحمر الممر التجارى الرئيسى. وكانت مملكة حمير ، آخر الممالك القديمة، قائمة لا على أساس طرق التجارة القديمة فى الداخل وإنما على المدن والقرى فى مرتفعات اليمن. ومع أواخر القرن السادس، كانت حمير نفسها تعانى

الاضمحلال وكان سد مأرب العظيم قد تصدع وانهار، ولم يتم إصلاحه أبداً، وتم هجران الواحة وتركها للبدو الرُّحل . وآخر نقش مؤرخ بالخط العربى الجنوبى القديم قد كتب فى سنة ٥٥٩م . ومع نهاية مملكة حمير جاء الحكم الأجنبى، أولا على أيدى الأحباش منذ ثلاثينيات القرن السادس ثم على أيدى الفرس. وكان لا يزال هناك بعض الرجال الذين يعرفون قراءة الخطوط الأثرية القديمة ، كما بقيت ذكريات فولكلورية عن الممالك القديمة، وكان الانهيار النهائى لسد مأرب أواخر القرن السادس بمثابة المنعطف فى تاريخ المنطقة.

كانت هناك مدن متناثرة فى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية كما كانت هناك شبكات من الأسواق والتجار . ففى منطقة التلال فى الحجاز غرب شبه الجزيرة كانت هناك مدن تجارية وزراعية صغيرة من ضمنها مكة والمدينة ، وكان سكان هذا المدن الحجازية الصغيرة هم نخبة الإمبراطورية الإسلامية الباكرة . كانت هذه مجتمعات مستقرة، أيضا فى منطقة النخيل الكبرى فى اليمامة على ساحل الخليج . وكانت معظم هذه البلدات والأسواق تستخدم أساسًا لتبادل الصوف والجلود لدى الرعاة مع الغلال وزيت الزيتون والنبيذ التى كانت مواد الرفاهية الأساسية . ومنذ سنة ٥٠٠ ميلادية تقريبًا ، على أية حال، بدأت حركة اقتصادية جديدة فى الظهور وهى تعدين المعادن الثمينة فى الحجاز[٦]. أما السبب فى أنها بدأت فى ذلك الوقت وليس قبل ذلك فهو أمر غير واضح: وربما كانت اكتشافات الصدفة قد أطلقت موجة من التنقيب عن المعادن. وكل من الأدلة الأثرية والمكتوبة تبين أن هذا التعدين كان يزداد أهمية حوالى سنة ٦٠٠م، وأن بعض المناجم كانت مملوكة لبدو شبه الجزيرة العربية وتولوا إدارتها مثل قبائل بنى سليم، وقد زاد إنتاج المعادن الثمينة كثيراً فى رفاهية المنطقة. فقد كان بأيدى البدو، أو بعضهم على الأقل ما يكفى من المال ليجعلهم مستهلكين مهمين لمنتجات المناطق المستقرة. وظهرت مجموعات من التجار لاستيراد البضائع من بلاد الشام، وأقاموا شبكات بين القبائل للسماح لقوافلهم بالمرور فى سلام.

ويبدو أن أهم هذه المراكز التجارية الجديدة كانت مكة . وتقع مكة فى وادٍ غير ذى زرع بين جبال قاحلة جرداء ، وهى بيئة غير مشجعة لإقامة مدينة، ولكن كانت لها

أهميتها الدينية التى جذبت الناس إليها . وقد بنيت الكعبة حول الحجر الأسود. وكان إبراهيم عليه السلام قد بنى الكعبة منذ زمن بعيد. وحول الكعبة تقع منطقة مقدسة «الحرم» ، ممنوع فيها العنف . وفى هذه المنطقة كان يمكن لأبناء القبائل المتعادية المختلفة أن يتقابلوا للتجارة وتبادل البضائع والمعلومات . وتطور الأمر بحيث ظهر سوق ومعرض تجارى وكان البدو يفدون من كل مكان لزيارته: وقد تم الربط بين الكعبة والتجارة برباط وثيق .

وعند نهاية القرن السادس الميلادى ، كانت قبيلة قريش مسئولة عن الكعبة والحرم. ولم تكن قريش من البدو ولكن أبناءها عاشوا فى مكة. وكانوا يتولون رعاية الكعبة، وبمرور الوقت أخذوا ينظمون قوافل التجارة من مكة إلى الشام شمالاً واليمن فى الجنوب (رحلتى الشتاء والصيف) . وأسسوا شبكة علاقات فى جميع أنحاء غرب شبه الجزيرة وأحيانا فيما وراءها : ويقال إن بعض العائلات البارزة كانت تمتلك ضياعًا زراعية وممتلكات فى بلاد الشام. هذه الاتصالات ، وهذه الخبرة فى التجارة ، والسفر وسياسات التفاوض، قيِّض لها أن تبرهن على أهميتها القصوى فى ظهور الدولة الإسلامية.

كانت هناك علاقات تكافلية حميمة تربط بين البدو والتجار والمزارعين فى المناطق المستقرة وكانت بعض القبائل تضم بطونا من المستقرين وبطونًا من البدو على السواء، وكانت بعض الجماعات يعملون بالرعى أو بالزراعة فى فترات مختلفة ، وكان كثيرون يقومون بهذه وتلك . وقد اعتمد بدو شبه الجزيرة على أهل المناطق المستقرة فى إمدادهم بحاجتهم من الغلال أو القمح أو النبيذ . كما اعتمدوا عليهم فى رعاية الكعبة والأسواق التى كانت يمكنهم التقابل فيها للقيام بالاتفاقات والترتيبات لمرور القوافل التى تعزز مواردهم الهزيلة . وكان البدو معتادين من عدة جوانب على قبول الزعامة السياسية ، أو الإرشاد السياسى على الأقل ، من النخب المستقرة . من ناحية أخرى ، كان الناس المستقرون يحتاجون ، أو يخافون ، البدو بسبب مهاراتهم العسكرية. وعندما كان يتم التعامل معهم مثلما تعامل الغساسنة واللخميون مع البدو فى بداية الشام،

كان يمكن أن يكونوا دعمًا عسكريًا مفيدًا؛ أما عندما كان يفشل التعامل معهم أو يتم تجاهلهم ، فكان يمكن أن يشكلوا تهديدًا ومصدرًا للقلق والضرر. كان هذا التكافل بين الزعامة المستقرة والقوة العسكرية للبدو هو الذى شكل الأساس الذى قامت عليه جيوش الفتوح الإسلامية الباكرة.

ليس هذا مجال تقديم عرض كامل لحياة النبى محمد وتعاليمه ، ولكن بعض المعرفة بسيرته وإنجازاته أمر جوهرى لفهم آليات الفتوح الأولى. فقد ولد فى فرع كريم وإن لم يكن ثريًا من قريش سنة ٥٧٠م تقريبًا . ويقال إنه فى شبابه قام برحلات تجارية إلى بلاد الشام وناقش أمور الدين مع الرهبان المسيحيين الشوام، ولكن معظم سنى حياته الباكرة تحجبه القصص الدينية . وربما يكون قد بدأ دعوته حوالى سنة ٦٠٠م للمرة الأولى حيث دعا إلى ديانة توحيدية صارمة(*). وكانت الرسالة التى جاء بها غاية فى البساطة . فالله واحد أحد، ومحمد (عليه الصلاة والسلام) رسوله الذى ينقل إلى العالمين رسالته التى نزلت عليه بواسطة جبريل. وجاء فى الرسالة أيضا أن أرواح البشر سوف تخضع للحساب، فيذهب الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى الجنة، بما فيها من نعيم، أما الأشرار فيذهبون إلى نار جهنم. وقد بدأ محمد يجتذب الأتباع ، ولكنه أيضا جلب على نفسه عداوة البعض. فلم يكن الناس يروقهم أن يُحرق أجدادهم المبجلون فى نار جهنم ، ومن الناحية العلمية رأوا أن هذه الدعوة الجديدة تمثل هجومًا على الكعبة فى مكة وما كانت تدره من رخاء . ووجد محمد نفسه هدفًا لعداوة متزايدة.

وبحلول سنة ٦٢٢م كانت الأمور قد وصلت إلى ذروتها ولكن محمدًا وجد الإنقاذ فى تدخل أهل المدينة المنورة (يثرب) التى تقع على مسافة حوالى ٣٢٠ كيلو مترًا

(*) من الطبيعى أن يتحدث المؤلف، وهو مؤرخ غير مسلم بهذه اللغة المحايدة وقد آثرت أن أترجم عباراته بدقة دون التدخل فى صياغتها حتى يمكن نقل أفكاره بأمانة للقارئ العربى. وأظن أن القارئ سوف يتفهم الموقف الفكرى للمؤلف مع الاحتفاظ بحقه فى الاختلاف معه . ومن ناحية أخرى ، لاينبغى أن نتوقع مع مؤلف الكتاب - وهو ابن ثقافة مختلفة وديانة مختلفة - أن يكتب عن هذه المسألة مثلما يكتب أحد المسلمين. وعلى أية حال، فالمؤلف باحث جاد ومحايد .كما أننى لم أضف عبارات الدعاء والتبجيل مثل «عليه الصلاة والسلام» بحيث يحتفظ النص العربى بروح الأصل الإنجليزى. (المترجم)

شمالاً. كانت المدينة المنورة تختلف اختلافًا بينًا عن مدينة مكة. فلم يكن بها مزار مقدس وكان أهلها يعيشون فى مستوطنات متناثرة فى واحة خصيبة، ويزرع القمح والتمور. وكانت يثرب تعانى أزمة : ذلك أن الامتثال القبلى والمنافسات القبلية جعلت الحياة عابسة متجهمة وخطيرة ولكن لم يكن يبدو أن أحداً يستطيع أن يضع نهاية لهذا كله . وعند هذه النقطة دعوا النبى محمد، الذى خرج على قبيلة قريش ذات المهابة والمكانة ، لأن يأتى ويتوسط بينهم. وهاجر محمد ومعه جماعة صغيرة من أتباعه من مكة إلى المدينة . وقد وُصفت رحلتهم بأنها «هجرة» ، وسمى من اشتركوا فيها باسم «المهاجرين» ، على حين عُرف الذين ساندوا النبى محمد فى المدينة باسم «الأنصار» . وتحدد سنة الهجرة ٦٢٢م بداية العصر الإسلامى. ومن بين المجموعة الصغيرة من المهاجرين كان أبوبكر ، وعمر وعثمان الذين صاروا فيما بعد الخلفاء الثلاثة الأوائل بعد وفاة النبى، وبعدهم ابن عمه وزوج ابنته على . والهجرة علامة على اللحظة التى انتقل فيها النبى محمد من كونه نبيًا وحيداً ، «صوت يصرخ فى البرية» إلى حاكم لدولة صغيرة، ولكنها نامية.

ومنذ بداية البداية، كان النبى محمد محاربًا مثلما كان نبيًا وقاضيًا ، وتوسع المجتمع الإسلامى من خلال الصراع مثلما توسع بفضل الدعوة . فقد كانت قريش فى مكة مصممة على سحقه ، كما أن محمداً كان يبذل ما فى وسعه بمهاجمة قوافل التجارة التى كانت بمثابة شريان الحياة لحكام مكة . وفى سنة ٦٢٤م ، وقرب بئر بدر ، أوقع المسلمون هزيمة أولى بالمكيين وأخذوا عدداً من الأسرى ولكنهم لم يستولوا على القافلة التجارية التى وصلت بسلام إلى مكة . وبعد ذلك بعامين هزم المكيون قوات محمد فى «أُحُد» ، وفى السنة التالية قاموا بمحاولة للاستيلاء على المدينة نفسها. واستطاع المسلمون هزيمتهم فى غزوة الخندق وأعقب ذلك نوع من الورطة. فقد عُقد صلح الحديبية مع المكيين سنة ٦٢٨م ، وفى عام ٦٣٠ تمكن محمد من فتح مكة وتقبلت غالبية الأرستقراطية المكية سلطته . وفى شتى أنحاء شبه الجزيرة العربية. ووصلت الوفود من القبائل من جميع أرجاء شبه الجزيرة ، يعلنون قبولهم سيادته ويوافقون على دفع الزكاة .

ويمكن أن نرى شيئًا عن كيفية أن المسلمين فى زمن الفتوح العظمى اعتبروا تراث النبى فى الخطب التى قيل إن القادة العرب ألقوها إلى يزدجرد الشاه الساسانى فى زمن فتح العراق. وبالنسبة لواحد من هؤلاء الرجال[٧].

«إنك وصفتنا صفة لم تكن بها عالمًا ، فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات؛ فنرى ذلك طعامنا . وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض ، ولانلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضًا ، ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ؛ فبعث الله إلينا رجلاً معروفًا ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا وحسبه خير أحسابنا ، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا ؛ فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد قبل ترب كان له وكان الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئا إلا كان فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين؛ فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا : إن ربكم يقول لكم : إنى أنا وحدى لاشريك لى، كنت إذْ لم يكن شىء وكل شىء هالك إلا وجهى، وأنا خلقت كل شىء وإلى يصير كل شىء ، وإن رحمتى أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى بها أنجيكم بعد الموت من عذابى، ولأحلكم دارى ؛ دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه، فأنا الحكم بينكم . فمن قُتل منكم أدخلته جنتى ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناوأه ، فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجى نفسك[*].

(*) الطبرى ، ١ ، ٢٢٤١ (ج٣، ص٤٩٩–٤٥٠) ، ط. دار المعارف وهو المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدى.

وهناك رجل آخر[٨] شدد على الجوانب العسكرية والسياسية لإنجازه : «إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويُعرّفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلاّ صاروا فرقتين ؛ فرقة تقاربه وفرقة تباعده ، ولايدخل معه فى دينه إلاّ الخواص. فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعًا على وجهين؛ مكره عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق..»(*).

ومن غير المحتمل تمامًا أن أيا من هذه الخُطب قد قيلت كما وردت بيد أنها لا تزال مهمة للغاية. فالرواية حسبما وصلت إلينا ربما تكون قد زيد فيها فى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى، أى فى غضون جيلين أو ثلاثة أجيال بعد وفاة النبى، وبينما كانت الفتوح الإسلامية فى إسبانيا، ووسط آسيا والهند لا تزال مستمرة . فهى تظهر كيف كان المسلمون الأوائل يتذكرون النبى محمد وهو يقودهم خارج الفقر والانقسامات الداخلية. وهى تؤكد على أهمية كونه من قريش وأهمية الدين الجديد الذى جاء به ، الذى آمن به غالبيتهم دونما إكراه .

كانت غزوات النبى محمد، بمعنى ما، بداية لحركة الفتوح الإسلامية . فقد أوضح مثاله أن القوة العسكرية المسلحة فى سبيلها لأن تصبح عنصرًا مقبولاً أولاً فى الدفاع عن الدين الجديد ثم فى التوسع . وكان نموذج النبى يعنى أنه لم يكن هناك مثيل للاتجاه السلمى الذى تميزت به المسيحية الباكرة . كذلك فإن تاريخ غزواته كان محفوظًا تمامًا فى ذاكرة المسلمين الأوائل، وجادل البعض بأن[٩] سجلات غزواته ، سواء تلك التى شارك فيها بنفسه أو تلك التى جردها تحت قيادة أحد غيره، كانت المادة الأساسية التى اعتمد عليها كُتاب السيرة النبوية الأوائل . وفى الوقت نفسه، فلاشك فى أن الدبلوماسية كانت أكثر أهمية من الغزو العسكرى فى الإسلام فى شبه الجزيرة العربية. لقد كانت شبكة العلاقات التى استمدها من علاقاته القرشية ،

(*) الطبرى ، ج٣ ، ص٤٤٨-٤٤٩ النعمان بن مقرن.

وليس السيف ، هى التى قادت الناس من أماكن نائية مثل اليمن وعُمان إلى مبايعة النبى. كانت القوة العسكرية قد ضمنت بقاء الأمة، ولكنها لم تكن هى الأداة الرئيسية فى انتشار الإسلام أثناء حياة النبى .

كذلك قدمت تعاليم الإسلام فكرة «الجهاد»[١٠]. والجهاد مفهوم مهم فى الإسلام . وهو مفهوم أثار منذ البداية جدلاً مستمراً بين المسلمين. فقد كانت الأسئلة الأساسية عما إذا كان الجهاد يتطلب العنف أم يمكن أن يكون نضالاً روحيًا فحسب، وعما إذا كان من الممكن أن يكون دفاعيًا أم أنه يمكن أن يستخدم شرعًا لتوسيع حدود الإسلام، وعما إذا كان فرضًا على المسلمين أو نشاطًا طوعيًا يمكن أن يكون ثوابه الجدارة الروحية ، كلها كانت أسئلة مطروحة للنقاش.

وفى القرآن عدة آيات ترشد المسلمين إلى كيفية التعامل مع الكفار ويبدو أن آيات مختلفة تحمل رسائل مختلفة. فهناك مجموعة من الآيات القرآنية توصى بمجادلة غير المسلمين بالتى هى أحسن ومناقشتهم سلميًا لإقناعهم بخطأ ما هم عليه. ففى سورة النحل : آية ١٢٥ ، مثلا: تحث المسلمين على: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . وتوحى عدة آيات قرآنية بأن عدداً من المسلمين على الأقل كانوا مترددين فى الانضمام إلى الحملات العسكرية ، وأنهم نالوا التوبيخ بسبب قعودهم دون عمل على حين كان يجب عليهم القتال «فى سبيل الله» . ويوحى عدد هذه الآيات الحافزة وإلحاحها بأنه كانت مجموعة مهدئة من بين المسلمين الأوائل كانوا مترددين فى شن حروب هجومية من أجل دينهم الجديد، أيا كانت أسباب ترددهم .

وفى بعض الآيات يظهر هؤلاء الذين لايقاتلون بأنهم يخسرون فوائد النصر وكذلك ثواب الحياة الآخرة . فسورة النساء (٧٢- ٧٤) توضح لهم:

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وهناك آيات أخرى تؤكد فقط على الثواب الروحى، فسورة التوبة (٣٨-٣٩) مثلاً، تقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. وهنا نجد الفكرة ، التى تم التعبير عنها فى الكثير من الحكايات الدينية عن الفتوح، بأن ثواب الحياة الآخرة كانت هى القوة الدافعة لدى المحارب المسلم.

وهناك أيضا آيات توحى بموقف أكثر تشدداً وعنفًا تجاه غير المسلمين ففى سورة التوبة (آية ٥): ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذه الآية يكاد يمكن اعتبارها النص المؤسس لحركة الفتوح الإسلامية، وقد ترددت أصداء مصطلحاتها فى العديد من الروايات الخاصة باستسلام المدن والبلاد للمسلمين . وقد تم تخفيفها على نحو ما فى آية أخرى من سورة التوبة (آية ٢٩): ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . هذه الآية وغيرها مثلها توضح أن أهل الكتاب (أى اليهود والنصارى) ينبغى الحفاظ عليهم طالما أنهم يدفعون الجزية ويعترفون بأنهم فى مكانة أدنى(*).

وقد عمل المفسّرون المسلمون جاهدين للتوفيق بين هذه النظرات التى تبدو مختلفة . وقد توصل الرأى السائد إلى أن الآيات القرآنية التى تحبذ الحرب بلا قيود ضد الكفار قد نزل بها الوحى فى وقت لاحق على نزول الآيات التى تحث على الدعوة والجدل . ووفقًا للفقهاء ، كان هذا يعنى أن الآيات الأولى قد تم نسخها بالآيات التى نزلت فيما بعد .

(*) تقول عبارة المؤلف حرفيًا «واعترفوا بوضعهم باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية» ، وهو تعبير سياسى حديث يسبب الكثير من الارتباك والخلط فى المفاهيم. (المترجم)

ومن ثم فإن الآيات المتشددة ، خاصة الآية الخامسة من سورة التوبة التى نقلناها فى السطور السابقة ، تمثل الرؤية الإسلامية النهائية للجهاد . وعلى أية حال، سيكون من الخطأ أن نتصور أن الجدل قد انتهى فى زمن الفتوح الإسلامية الباكرة ، وأنه لم يحدث حتى بعد مرور مائتى سنة تقريبًا على وفاة النبى أن تمت صياغة تعريف الجهاد على أيدى فقهاء مثل عبد الله بن مبارك (ت ٧٩٧م)[١١]. ومن المؤكد أن القرآن قدم سندًا نصيًّا لفكرة أن المسلمين يمكنهم ويجب عليهم محاربة الكفار، ولكنه لايقترح أبدًا أن يتقدموا بالاختيار بين اعتناق الإسلام أو الموت . فقد كانت الخيارات هى اعتناق الاسلام ، أو الخضوع ودفع الجزية ، أو استمرار القتال . وباختصار فإن الحث القرآنى يمكن أن يستخدم فى توسيع نطاق السلطة السياسية الإسلامية على الكفار أينما كانوا ، بيد أن هذه الآيات لايمكن استخدامها لتبرير فرض الإسلام بالقوة على غير المسلمين. كما أن المناقشات القرآنية للقتال أوضحت أن الثواب الدينى، أى نعيم الجنة، كانت أهم كثيرًا من النجاح المادى. وبهذه السبل ، يقدم القرآن التبرير الإيديولوچى للفتوح الإسلامية[*].

ويبدو أن الرسائل التى حملتها الآيات القرآنية والتى قد تثير حيرة (بعض من يقرأونها بسطحية) قد تم تبسيطها فى قاعدة تقريبة وفرت التبرير لحروب الفتح. وعندما خاطب بدو شبه الجزيرة الشاهنشاه الساسانى شرح أحدهم ما يفعلونه . فعندما ضمن النبى محمد ولاء كل العرب[١٢].

«... ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسَّن الحسن وقبَّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو

(*) على الرغم من أن المؤلف قد بذل جهدًا واضحًا فى فهم معنى الجهاد من خلال آيات القرآن الكريم فإنه قصر جهده على الآيات التى تحمل مفاهيم القتال وحدها من ناحية، كما أنه لم يفرق بين الآيات التى تتحدث عن «الكفار» ، وتلك التى تتحدث عن «أهل الكتاب» من اليهود والنصارى، ولم يحاول الاستفادة من آراء الفقهاء المسلمين الذين عالجوا موضوع الجهاد. لقد تحدث المؤلف عن «القتال» ، وظن أنه تحدث عن «الجهاد»، والفرق كبير وخطير. (المترجم)

أهون من آخر شرٌ منه الجزاء ، فإن أبيتم بالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيمتونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، ووإلا قاتلناكم(*)(١٢).

كانت هذه الكيفية التى تم بها تفسير الجهاد فى أوائل القرن الثامن الميلادى، وربما قبل ذلك. وإلى جانب أيديولوچيا الفتح، أنتجت الأمة الإسلامية فى السنوات الأخيرة من حياة النبى أيضًا ، نخبة قادرة على قيادتها وتوجيهها. فقد كانت الدائرة القريبة من النبى (الصحابة) مؤلفة من رجال كانوا قد أيدوا النبى فى مكة فى السنوات الأولى وصحبوه فى الهجرة إلى المدينة سنة ٦٢٢م . ومن بينهم كان الخلفاء الأوائل الراشدون) أبوبكر (٦٣٢-٦٣٤) وعمر(٦٣٤-٦٤٤) وعثمان (٦٤٤-٦٥٦م) وتحت توجيه هؤلاء الرجال جرت الفتوح الأولية . وهم يظهرون بشخصيات متمايزة فى المصادر العربية . فأبو بكر هو الرجل المسن الوقور دمث الخلق ، وعمر بن الخطاب هو الصارم التطهرى الذى لا يلين ، وعثمان هو الثرى الكريم الذى يعانى ضعفًا مميتًا لميله إلى تعيين أقاربه فى المناصب العليا. ولم يتولّ أحد من هؤلاء الرجال قيادة الجيوش الإسلامية بشخصه فعلاً، وبغض النظر عن زيارة عمر بن الخطاب إلى القدس، لايبدو أن أحداً منهم غادر المدينة، عاصمة الدولة الجديدة، إطلاقًا . ومن الصعب أن نجزم بمدى سيطرتهم الفعلية على جيوشهم البعيدة . وتثابر المصادر العربية على رسم صورة لعمر ، الذى حدثت فى عهده معظم الفتواحت الباكرة المهمة، تصوره قائدًا حقيقيًا . ولدينا روايات عديدة عن كيف أنه كان يكتب إلى القادة الميدانيين يوجههم إلى ما يفعلون ، وكان يتلقى الغنائم والأسرى فى المدينة ويتصرف تصرف القائد الأعلى الحاضر. وقد مال المؤرخون المحدثون إلى الشك فى هذا ورأوا فيه نوعًا من إضفاء المثالية على الدولة الإسلامية عامة وعلى عمر بن الخطاب خاصة. والحقيقة أنه لابد أن

(*) نص كلام النعمان بن مقرن فى الطبرى ، (ج١) .

يكون القادة الميدانيون قد مارسوا قدراً من الاستقلال الذاتى أكبر كثيراً مما توحى به النصوص(*).

ومن غير المحتمل أن الاتصالات عبر المسافات الشاسعة التى اخترقتها الجيوش العربية كانت سريعة ومستمرة على النحو الذى يوحى به التراث العربى، ولكن الواضح أنه كانت هناك درجة كبيرة من السيطرة للعاصمة. إذْ كان يتم تعيين القادة وعزلهم بأوامر من الخليفة ، وليس هناك مثال واحد فى المصادر العربية على قائد يتمرد ضد سلطة الخليفة أو يخالف أوامره. وهو ما يتناقض بوضوح مع الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الساسانية ، اللتين انتابهما العجز الفعلى فى أوقات مختلفة بسبب حالات التمرد التى قام بها القادة والولاة ضد الحكام . لقد كانت الفتوح الإسلامية أبعد ما تكون عن مجرد تدفق لجحافل البدو الجامحين ؛ فقد كانت الحملات تحت توجيه مجموعة صغيرة من الرجال ذوى القدرة والعزم.

كانت القيادة السياسية للدولة الإسلامية الباكرة مؤلفة من المهاجرين بشكل يكاد يكون كاملاً ؛ وكان الأنصار من أهل المدينة مستبعدين بدرجة كبيرة ، وإن لم يكن تمامًا ، من القيادة العسكرية . وعلى أية حال، فلا يبدو من المحتمل أن الفتوح كانت ستنجح على هذا النحو لو لم تكن هناك القيادة والخبرة العسكرية التى تمثلت فى بقية قريش بمكة . فمنذ حوالى سنة ٦٢٨م فصاعداً ، أعلن المزيد من زعماء قريش إسلامهم .

(*) فى تقديرى أن مثل هذا الشك القائم على الافتراض دونما دليل علمى، والذى يتجاهل النصوص التاريخية تمامًا ، نوع من الانحياز الذى لايليق بالبحث العلمى. ولو طبقنا هذا الموقف تجاه كل النصوص التاريخية لأنكرنا تاريخ البشرية جمعاء لمجرد أننا نشك فى صدقها؛ وهو نوع من العبث الناتج عن الإنحيازات والمواقف المسبقة الذى يجعلنا نتجاهل النصوص التاريخية لمجرد أنها لاتروقنا . ومن ناحية أخرى، فإن إنكار الدافع الدينى الذى جعل القادة يرون فى طاعة الخلفاء طاعة لله، وقياس الأمور بالمعايير المادية المجردة، يُغفل أن الحماسة الدينية الناتجة عن الإيمان كانت تحرك الخلفاء والقادة – أو نسبة كبيرة منهم على الأقل– نحو بناء دولتهم والحفاظ عليها. ولو أننا تجاهلنا هذه العوامل المعنوية فإننا لن نستطيع أن نفهم ما حدث . وفضلاً عن هذا كله ، فإن المصادر العربية لم تتورع رسم صورة مثالية للدولة الإسلامية بدليل ما تحفل به هذه المصادر من أخبار الفتن والصراعات التى أدت إلى مصرع عثمان بن عفان وما أعقبه من أحداث. (المترجم)

وفى المقابل ، نال كثير منهم مكافأتهم على شكل مناصب مهمة فى الدولة الجديدة. وعندما بدأت الفتوح تحت حكم أبى بكر ، اتجه إلى هذه المجموعة ليختار منهم الكثير من قادة جيوشه . وكان من بينهم خالد بن الوليد ، الذى أرسله أبوبكر لكى يحارب المرتدين فى اليمامة شرق شبه الجزيرة العربية ثم عينه لقيادة الجيوش الإسلامية فى العراق وبلاد الشام. وثمة رجل آخر من الخلفية نفسها كان عمرو بن العاص، وهو قرشى واسع النفوذ وافق على اتباع النبى محمد سنة ٦٢٨م على شرط التسامح إزاء مقاومته السابقة للنبى، وأن يعطيه دوراً فى الأمور(١٣). كان عمرو واحداً من نمط النخبة الجديدة الذين اعتبروا أنفسهم أعلى اجتماعيًا من كثير ممن كانوا من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام . وكان قد ورث ضيعة اشتهرت بأعنابها وكرومها بالقرب من الطائف ، وفى لحظة غفلة أخبر رسولاً أرسله الخليفة عمر بن الخطاب أن أباه ، أى أبا عمرو، كان يرتدى الحرير بأزرار من الذهب على حين كان أبو الخليفة عمر يحمل الحطب الذى كان يتكسب منه عيشه(١٤). وقد لعب عمرو بن العاص دوراً مهمًا فى فتح بلاد الشام قبل أن يتولى قيادة الجيوش الإسلامية إلى مصر. وربما يكون أبرز مثال على تجنيد الأعداء القدامى فى النخبة الجديدة هو مثال عائلة أبوسفيان . فقد كان أبوسفيان مكيًا غنيًا من المدرسة القديمة ومن ألد أعداء النبى محمد والدين الذى دعا إليه. وكان أبناؤه قد أدركوا بسرعة إمكانيات النظام الجديد واعتنقوا الإسلام ، وكان أحدهم، وهو معاوية ، كاتبًا للنبى. وقد تم إرسال معاوية وأخيه يزيد مع الجيوش الإسلامية الأولى إلى بلاد الشام، التى كان أبوهما يمتلك فيها بالفعل ضياعًا زراعية . وصار يزيد واليًا على المناطق المفتوحة حديثًا قبل أن يموت فى الوباء، ولكن معاوية نجا ليصبح أول الولاة على بلاد الشام، ومنذ سنة ٦٦١م ، صار خليفة . كما كان هو مؤسس القوة البحرية الإسلامية فى شرق المتوسط .

ومن بين مدن الحجاز مدينة الطائف القديمة والتى تقع على مرتفع فى الجبال المجاورة لمكة . وكانت الطائف مدينة مسوَّرة محصنة تحيط بها الحدائق والبساتين ، ومكانًا للاستجمام والراحة بعيداً عن حرارة الصيف فى مكة . وكانت تحكمها قبيلة ثقيف ذات المكانة السامية ، التى كانت مسئولة عن رعاية مزار المدينة الذى كان

مكرّسًا للربة اللات. وكان الثقفيون ، مثل الكثير من المكيين، قد دعوا إلى الإسلام وأعلنوا إسلامهم فى السنوات الأربع الأخيرة من حياة النبى. وقُيّض لهم أن يكونوا الشركاء الأدنى لقريش فى المشروع الإسلامى، وكانت لهم أهمية خاصة فى فتح العراق وإدارته الباكرة.

كان أبناء هذه النخبة الجديدة من غير البدو بالتأكيد . فقد جاءوا من خلفيات حضرية وتجارية. وكانوا يفاخرون بأنهم يمتلكون فضيلة الحلم . وكان هذا يتناقض بوضوح مع بدو شبه الجزيرة الذين اعتبروهم سريعى الغضب لايمكن الاعتماد عليهم ، مفيدين بسبب مهاراتهم العسكرية وصلابتهم ولكنهم بحاجة إلى من يسيطر عليهم ويقودهم(١٥). ولكن الشراكة ، والمجاملة ، كانت مفتاح النجاح للفتوح العربية الباكرة، وكانت نتاج النخبة الحضرية فى الحجاز التى استخدمت الطاقات العسكرية للبدو ووجهتها لتحقيق أهدافها .

عندما توفى النبى محمد سنة ٦٣٢م كان مستقبل المشروع الإسلامى برمته متأرجحًا . فعلى مدى أسابيع قليلة كان الخطر ماثلاً عمًا إذا كانت هذه الأمة الجديدة سوف تبقى وتتوسع أم أنها سوف تتفكك إلى مجموعات متحاربة . وقد حُسم التاريخ المستقبلى لكثير من سكان العالم بفضل الأفعال التى قام بها عدد صغير من الرجال الذين كانوا يتناقشون ويتجادلون فى المدينة. فلم يكن النبى محمد قد ترك وريثًا للحكم . إذ كان قد أوضح بجلاء أنه «خاتم الأنبياء» ؛ أى آخر الرسل الذين أرسلهم الله منذ آدم . ولم يكن واضحًا بالمرة ما إذا كان يمكن أن يُعيّن خليفة له . وبدأت المجموعات المختلفة داخل الأمة تؤكد على حاجاتها الخاصة . ويبدو أن الأنصار فى المدينة كانوا سعداء فى اتخاذهم الإسلام دينًا ، ولكنهم لم يكونوا راغبين فى قبول السلطة السياسية لقريش : فقد كان القرشيون قد جاءوهم لاجئين على أية حال، ولقوا الترحيب فى مدينتهم وكانوا آنذاك يتمتعون بالسيادة عليهم. وكان ما يثير الحنق خصوصًا أن الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا من قريش ، وهم رجال كانوا قد عارضوا النبى بضراوة بينما كان الأنصار يحاربون فى سبيل الإسلام، هم الذين احتلوا المواقع ذات النفوذ . وقد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة وتناقشوا ، وكان من الواضح أنهم يحبذون فكرة أن الأنصار ينبغى أن يكونوا مستقلين وأن يتولوا زمام الأمور فى مدينتهم.

وبينما احتدم النقاش وتصادمت الأفكار ، كان هناك أناس آخرون يتحركون بسرعة وكفاءة. فقبل أن يصل الأنصار إلى أية قرارات حاسمة ، كان عمر بن الخطاب قد أخذ بيد أبى بكر الصديق وطلب مبايعته خليفة رسول الله . وبعد هذه الوقفة الدرامية قبلت قريش والأنصار قيادة أبى بكر الصديق . هذه على الأقل رواية ما حدث كما وردت فى المصادر العربية، وهى تحمل رنة الصدق والحقيقة . لقد كان الأمر فى جوهره انقلاباً . فعندما قام عمر بن الخطاب بهذا كان يحقق عدة نقاط . فقد كان يقول إنه يجب أن يكون هناك خليفة واحد للنبى يمكن أن يقود الأمة بأسرها ، بما فيها قريش (المهاجرون) والأنصار . وكان يقول أيضا إنه يجب اختياره من المهاجرين ، مسلمى مكة الأوائل. وستكون مكة البؤرة الدينية للدين الجديد ، ولكن السلطة السياسية كانت متمركزة بالمدينة ومن المدينة وجه الخليفتان الأولان الفتوح العظمى.

ومن جوانب كثيرة كان أبوبكر المسن اختياراً موفقًا ، فلم يكن بوسع أحد أن ينازع فى ولائه للنبى ، كما أنه شاطر على بن أبى طالب شرف السبق فى اعتناق الإسلام . وكان رفيق النبى عندما قام بالهجرة الخطرة من مكة إلى المدينة فى سنة ٦٢٢م . كما يبدو أيضا أنه كان دبلوماسيًا لبقًا، ولكن ربما كانت أهم خصاله معرفته بقبائل العرب فى شبه الجزيرة العربية ، وشيوخهم ، ومصالحهم وصراعاتهم . لقد كانت هذه الخصال ذات قيمة قصوى فى العامين الحاسمين اللذين استغرقهما حكمه القصير.

كان تصرف عمر بن الخطاب قد أكد أن أبا بكر وقريش فى طريقهم إلى السيطرة على الدولة الإسلامية الوليدة، بيد أنه كانت هناك مشكلات أشد كثيراً فى بقية أنحاء شبه الجزيرة العربية. لقد انتشر الإسلام فى شبه الجزيرة ، سلميًا بدرجة كبيرة: إذْ كانت القبائل وشيوخها يرغبون فى ربط أنفسهم بهذه القوة الجديدة ووافق بعضهم على دفع الزكاة إلى المدينة المنورة . وقد أدى موت النبى محمد إلى وضع هذا كله موضع التساؤل . فقد شعر الكثير من الزعماء الذين أعلنوا إسلامهم أن هذا كان عقداً شخصيًا وأنه انتهى بموت النبى. وشعر آخرون بأنه ينبغى أن يُسمح لهم بأن يبقوا مسلمين دون دفع أموال الزكاة أو الاعتراف بالسلطة السياسية للمدينة . إلا أن هناك آخرين رأوا فى هذا فرصة لتحدى سيادة المدينة. ومن بين هؤلاء الأخيرين كانت قبيلة

بنى حنيفة بعددها الكبير فى اليمامة شرق شبه الجزيرة العربية. وقد أكدوا حينذاك أن لهم نبيًا أيضا هو مسيلمة. وقد اقترحوا فى جسارة أنه يجب تقسيم شبه الجزيرة إلى منطقتى نفوذ ؛ تتولى قريش إحداهما وتكون لهم الأخرى. وثمة قبائل أخرى فى شمال شرق شبه الجزيرة اختارت أن تتبع متنبئة اسمها سجاح. فقد كان النبى محمد قد أوضح كيف يمكن للنبى أن يحوز مكانة قوية وكم من الفوائد يمكن لمن يدعى النبوة أن يجلبها لقبيلته. ولم يكن هناك ما يدعو إلى الدهشة فى أن هؤلاء الذين ادعوا النبوة قد ظنوا أنهم يمكن أن يسيروا على مثاله . وتشير المصادر الإسلامية إلى هذه الحركات كلها باسم «الرِّدة» . وهو مصطلح يعنى عادة الارتداد عن الإسلام ، ولكنه فى هذا السياق كان معناه يتضمن كافة أنماط الرفض للإسلام أو السلطة السياسية للمدينة.

وقررت القيادة الإسلامية الجديدة اتخاذ خط جسور متشدد فى هذه التطورات، فقد طالبوا أولئك الذين بايعوا النبى محمد مرة بأن يبقوا على ولائهم لخليفته فى المدينة . ولايمكن لأحد أن يكون مسلما ما لم يكن مستعدًا لدفع الزكاة لحكومة المدينة المنورة . وباتخاذهم هذا القرار، حركوا الأحداث التى نتجت عنها الفتوح العربية الكبرى: فلو أنهم كانوا قد قرروا ترك مناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية تنفصل وتخلوا عن تدعيم الدين الجديد حول الكعبة فى مكة ، أو لو أنهم قرروا أن من الممكن ترك الناس يعتنقون الإسلام دون الاعتراف بالسلطة السياسية للمدينة المنورة ، أو كانوا قد قرروا عدم استخدام القوة المسلحة لتأكيد سلطتهم وإقرارها ؛ لما حدثت الفتوح أبدًا بالطريقة التى حدثت بها(*).

وإذ اتخذت القيادة هذا القرار انطلقت لفرضه بكفاءة قاسية. وأية مجموعة لم تقبل حكم المدينة المنورة كان لابد من إخضاعها ، بالقوة إذ لزم الأمر. وتم إرسال الأرستقراطى

(*) نحن لانوافق المؤلف على استخدام «لو» ؛ لأن التاريخ يبحث فى وقائع حدثت بالفعل ويحاول تفسير العلاقة السببية بينها. ويعنى هذا أن البحث التاريخى لايعرف كلمة «لو» التى تدل بدورها على احتمالات مختلفة، والبحث فى الاحتمالات بحث فى المستقبل ، والتاريخ بحث فى الماضى . ومن ثم فإن هذه الفذلكة القائمة على استخدام «لو» لافائدة حقيقية منها فى البحث التاريخى. (المترجم)

المكى خالد بن الوليد لسحق بنى حنيفة فى اليمامة وغيرهم من القبائل فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، كما تم إرسال حملات أخرى تكاد جميع قيادتها أن تكون من قريش إلى عُمان فى جنوب بلاد العرب واليمن . وقد ساعدتهم حقيقة أن كثيرين من أبناء قبائل الحجاز وغرب شبه الجزيرة ظلوا على ولائهم للمدينة ووافقوا على الخدمة فى الجيوش.

كانت حروب الردة هذه بالفعل بمثابة المرحلة الأولى من الغزوات والفتوح الإسلامية الأوسع. فقد تحرك خالد بن الوليد مباشرة بعد سحق بنى حنيفة لمساندة بنى شيبان فى هجماتهم الأولى على الإمبراطورية الساسانية بالعراق. وتم إرسال عمرو بن العاص لإخضاع قبائل جنوب بلاد الشام وظل من ضمن القادة الذين فتحوا بلاد الشام بأسرها .

كانت حركة هذه الفتوح الأولى وآلياتها غاية فى الأهمية. ولم تكن الدولة الإسلامية لتبقى دولة عربية مستقرة محدودة فى إطار شبه الجزيرة العربية وبادية الشام. فقد كان بدو شبه الجزيرة العربية يعيشون تقليديًا على الإغارة على القبائل المجاورة وأخذ الأموال فى أشكال مختلفة من أهالى المناطق المستقرة . وكان ثمة مبدأ أساسى فى التاريخ الإسلامى الباكر، على أية حال، ألاَّ يهاجم المسلمون بعضهم بعضًا : فقد كانت الأمة بمثابة قبيلة كبيرة آخذة فى الامتداد والتوسع بمعنى أن الناس جميعًا كانوا أعضاء فى المجموعة الدفاعية نفسها . وإذا كان العرب جميعًا آنذاك جزءًا من عائلة كبيرة فالإغارة على بعضهم البعض قد باتت أمرًا لامحل له وغير ذى ضرورة[١٦]. فقد كان سكان المناطق المستقرة مسلمين هم أيضا. وكان حلول السلم فى شبه الجزيرة العربية يعنى نبذ كلا الأسلوبين البدويين فى العيش والبقاء . وكانت البدائل صارمة : إما أن تقوم النخبة المسلمة بقيادة بدو شبه الجزيرة ضد العالم خارج حدودها والهامش الصحراوى، أو أن تتفكك الدولة الإسلامية ببساطة فيما بين أجزائها المتحاربة وتعود المنافسات المعتادة والفوضى التى عرفتها حياة الصحراء لكى تفرض نفسها من جديد. وما إن تم إخماد «الردة» وتمت السيطرة مرة أخرى على قبائل شبه الجزيرة العربية ، لم يعد هناك خيارة أمام حكومة المدينة سوى توجيه الطاقات

العسكرية المتأججة للبدو ضد الإمبراطورية الرومـانية والإمبراطـورية الساسانية . فقد كانت الطريقة الوحيدة لتجنب الانفجار الداخلى هى توجيه المسلمين ضد العالم غير المسلم.

وقد بدأت الفتوح قبل أن يتم إخماد حركات الردّة بشكل نهائى، فقد أعلنت القبائل إسلامها وقبلت سلطة المدينة لكى يُسمح لها بالمشاركة فى هذه الحملات. وسرعان ما كانت هناك عملية توافد مستمر للبدو إلى المدينة يريدون أن يجندوا فى الجيوش وعلى استعداد لإطاعة أوامر عمر بن الخطاب والقيادة الإسلامية.

وتم إرسالهم فى جيوش المحاربين . ولم يتم تحقيق الفتوح الأولى عن طريق هجرة رجال القبائل البدوية فى شبه الجزيرة العربية بعائلاتهم ، وخيامهم وقطعانهم على نحو ما فعل الأتراك السلاجقة عندما دخلوا الشرق الأوسط فى القرن الحادى عشر. وإنما تم تحقيق الفتوح بفضل الرجال المحاربين فى ظل نظام عسكرى يخضع للأوامر . وبعد الفتوح فقط تم السماح للعائلات على الانتقال من مضاربها الصحراوية لكى تستوطن المناطق المفتوحة حديثًا.

والأرقام التى تعطيها المصادر لنا تختلف اختلافًا بينًا ومن غير المحتمل أن تكون حقيقية فى هذه المرحلة الباكرة من التاريخ الإسلامى. إذ تخبرنا المصادر الإسلامية أن القوة المشتركة للجيوش التى فتحت بلاد الشام كانت حوالى ثلاثين ألف رجل[١٧]، ولكن هؤلاء نادرًا ما جاءوا معًا وكانوا يعملون معظم الوقت فى مجموعات أصغر عددًا، وتقول المصادر العربية إن عددها كان يتراوح ما بين ستة آلاف واثنى عشر ألف رجل[١٨]. وكانت الأعداد فى مصر أقل من هذا أيضا؛ فقد كانت قوات عمرو فى البداية ما بين ثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة آلاف رجل ، على الرغم من أنهم لم يلبثوا أن انضمت إليهم تعزيزات بلغت اثنى عشر ألف رجل . ومن الممكن أن تكون الأرقام غير موثوق بها . ولكنها تبدو واقعية ومتسقة تمامًا . ولم يكن هذا جيشًا تغلب على المقاومة بفضل التفوق العددى الهائل ؛ فالواقع أنه فى المعارك الحاسمة فى اليرموك ببلاد الشام والقادسية فى العراق، ربما كانوا أقل عددًا من خصومهم البيزنطيين والفرس.

كان عتاد الجيوش العربية بسيطا ولكنه كان فعّالاً . فلم تكن لهم ميزات تكنولوچية على أعدائهم ، ولا أسلحة جديدة ، أو تسليح متفوق، وعندما غزا المغول الكثير من أراضى آسيا وأوربا أوائل القرن الثالث عشر، كان واضحًا أن تمكنهم من فنون الرمى بالنشاب من فوق ظهور الخيل كان عاملاً رئيسيًا فى نجاحهم . فقد وفرّ لهم قوة النيران والحركة التى كانت تفوق كثيرا ما كان لدى أعدائهم. وعلى النقيض من ذلك كان العرب لايتمتعون بمثل هذه الميزات كما يبدو.

ولدينا فكرة واضحة عن تجهيز الجنود البيزنطيين من خلال التماثيل ولوحات النحت التى تصور المعارك، التى تساعدنا على إعادة بناء العتاد بقدر من الثقة . وبالمثل ، لدينا صورة واضحة عن المحاربين الراكبين فى العالم المسلم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر من رسوم المخطوطات الفارسية ذات التفاصيل الباهرة والتى وصلتنا من تلك الفترة. وعلى أية حال ، فإننا لانكاد نملك أى دليل مرئى عن الجيوش العربية الأولى . وليس هناك أى دليل أثرى يُعوّل عليه ومؤرخ عن العتاد العسكرى العربى فى هذه الفترة ، ولم تبق منها أى سيوف أو دروع . وبدلاً من ذلك علينا أن نعتمد على ما يرد ذكره بطريقة عرضية فى الروايات والأشعار، التى نادرًا ما تمدنا بالأوصاف التفصيلية سوى فى الحالات الاستثنائية(١٩).

وكان من المتوقع عادة من جنود الجيوش الإسلامية الباكرة أن يجلبوا أسلحتهم ، أو يحوزونها غنائم من ساحات المعارك. فقد كان العتاد العسكرى من أهم البنود التى يتم البحث عنها بين الغنائم عندما تتم هزيمة جيش ما، أو الاستيلاء على مدينة من المدن . فسرعان ما كان يقوم سوق نشط للأسلحة والعتاد فى كثير من الأحيان. ولم يكن هناك أى شىء عن الزى الرسمى: إذ كان كل رجل يرتدى ما يمكنه العثور عليه ، وما يستطيع تدبيره . كذلك كان متوقعًا منهم فى معظم الأحيان أن يوفروا الطعام لأنفسهم . إذ لم تكن هناك قوافل للإمداد والتموين ، ولا عربات متثاقلة محملة بالمؤن تعوق تقدم الجيش : فبدلاً من ذلك كان المتوقع من كل رجل أن يحمل زاده الشخصى أو يحصل عليه فى الطريق. فقد كان الجنود فى الجيش المسلم الذى غزا الإمبراطورية البيزنطية سنة ٧١٦-٧١٧م قد تلقوا أوامر من قائدهم بأن يأخذ كل منهم ما يساوى

كيلو جرامين من الغلال على ظهر جواده. وفى الواقع لم يحتاجوا إليهما لأنهم حصلوا على ما يكفى عن طريق الإغارات التى شنوها . وقد بنوا أكواخًا لتحميهم من جو الشتاء وزرعوا الأرض بحيث أمكنهم فيما بعد وأثناء الحملة أن يعيشوا على غلتها(٢٠). فالسفر الخفيف والعيش على ما تنتجه الأرض، ساعد القوات المسلمة على أن تقطع مسافات شاسعة ، لم يكن ممكنًا أبدًا أن يصلوا إليها لو أنهم كانت لديهم عربات تئن بصريرها تحت وطأة المؤن يجرونها معهم.

كان السلاح الرئيسى هو السيف(٢١). وكان السيف العربى فى البداية غير السيف المنحنى الذى يتصوره الخيال، وإنما كان سيفًا عريضًا ، مستقيمًا ذا نصل مزدوج الحدين وله مقبض صغير . وكان له غمد من الجلد أو الخشب الذى عادة ما كان يحمل بسيور أو شرائط حول الكتفين، ولايوضع فى حزام . والأمثلة الباقية من الفترة الساسانية المتأخرة بينها أنصال سيوف يبلغ طولها مترًا . ولابد أن هذه الأسلحة كانت تتطلب قوة كبيرة وبراعة فى الاستخدام. ويبدو أن أفضل السيوف كانت تستورد من الهند، على الرغم من أن اليمن وخراسان أيضا كانت لهما شهرة ذائعة فى صناعة الأسلحة فائقة الجودة. ومن المؤكد أن السيوف كانت مكلفة وغالية الثمن، وكانوا يطلقون عليها الأسماء وتتوارثها العائلات ويحتفى بها فى الشعر . فالسيف ، المستخدم فى القتال المتلاحم ، كان يعتبر سلاح البطل الحقيقى. ويبدو أيضا أن السيوف كانت تستخدم على نطاق واسع ، ومن الممكن أن تكون الثروة المتزايدة فى أجزاء من شبه الجزيرة العربية فى القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلاديين قد أتاحت للمزيد من البدو الحصول على هذه الأسلحة المهيبة.

وإلى جانب السيوف كانت هناك الرماح أيضًا. وكان الرمح الطويل فى أساسه سلاحًا للمشاة له قصبة خشبية ورأس معدنية بحيث يتاح استخدامه سلاحًا للقطع وسلاحًا للطعن. أما الحربة الأقصر فكانت تستخدم فى الفترة الاسلامية الباكرة من فوق ظهور الخيل ، على الرغم من أنه لا يوجد دليل على استخدام الحراب الثقيلة فى القتال الراكب. كما أننا نسمع روايات عن استخدام القضبان الحديدية، والقضبان الشائكة والعصى، والحجارة وأعمدة الخيام وأى شىء آخر تصل إليه الأيدى.

وكانت هناك أيضا القسى والنشاب، وكان رماة السهام يحظون بتقدير كبير . وتتحدث المصادر عن القسى «العربية» «الفارسية» ومن المحتمل أن العربية منها كانت أخف وأكثر بساطة . وليس هناك ما يشير إلى أن الجيوش المسلمة كانت لديها أقواس مزدوجة فى هذه المرحلة على الرغم من أنه من المؤكد أنها كانت تمتلكها مع قدوم القرن التاسع .

وكان يتم لبس دروع الزرد التى تغطى الجسم(٢٢)، على الرغم من أن عدد الرجال الذين كان بمقدورهم توفير دروع الزرد كان بالضرورة عددًا صغيرًا جدا: ففى سنة ٧٠٤ قيل أنه فى ولاية خراسان بأسرها كان هناك فقط ٣٥٠ درعًا من الزرد تغطى الجسم لحوالى خمسين ألف محارب. وكانت معاطف الزرد يتوارثها جيل عن جيل ، على حين المعاطف الجديدة المصقولة اللامعة غالية الثمن جدًا . وكانت خوذة الرأس على شكلين. كان هناك المِغْفَر، الذى يُعرف فى تاريخ السلاح الغربى باسم aventail (أى الجزء الأمامى المتحرك من الخوذة). وكان هذا فى الأساس قلنسوة من سلاسل المعدن كانت تنزل على الظهر لحماية الرقبة . أما البديل فكان عبارة عن خوذة مستديرة كانت تعرف باسم البيضة . وكان يجب أن يكون المحارب كامل التجهيز محميًا تمامًا ، على الأقل مثل المحاربين النورمان الذين صورتهم نسجية باييه Bayeux Tapestry(*)، ولكن لابد أن معظم الجنود العاديين كانوا أقل حظا، فقد كانوا يحاربون وهم يرتدون العباءة والعمامة التى كان تعرضهم حتمًا للخطر.

(*) تُنسب هذه اللوحة النسجية الشهيرة إلى مدينة باييى فى نورماندى بفرنسا ، ولا تزال محفوظة بمتحف البلدية بهذه المدينة حتى الآن. وهذه اللوحة (٧٠× ٥٠سم) نسجتها الملكة ماتليدا زوجة وليم الفاتح (وليم ابن الزنا William of Bastard) ووصيفاتها على طراز الرومانسك Romanesque لتصوير معركة هاستنجز ١٠٦٦م ، فاتحة الغزو النورمانى لإنجلترا ؛ وهى تصور حملة وليم الفاتح من الاستعداد فى نورماندى، ثم الإبحار عبر القنال الإنجليزى، فالمعركة نفسها. وإلى جانب قيمتها الفنية تُعتبر هذه اللوحة مصدرًا تاريخيًا فائق القيمة لمؤرخى الحرب والتسليح ، فقد صورت السفن والأسلحة وأدوات القتال المستخدمة أنذاك. (المترجم)

ولدينا قدر قليل للغاية من الأوصاف التفصيلية لشكل المعركة فى هذه الفترة وليس لدينا أى كتب عسكرية ترجع إلى وقت الفتوح الإسلامية الباكرة ، بيد أن المصادر فى بعض الأحيان تقدم بعض النصائح تعطينا فكرة ما عن الأساليب العسكرية، ففى سنة ٦٥٨م كان هناك جيش من العراقيين غير المجربين يغزون بلاد الشام فى أحد الحروب الأهلية التى نشبت بين المسلمين فى تلك الفترة . وثمة زعيم بدوى مسن مراوغ هو زُمر بن الحارث الكلابى أخذ على عاتقه أن يقدم لهم بعض النصيحة[٢٢]. فقد حثَّهم أولاً على أن يتأكدوا من توفر إمدادات المياه التى يمكنهم الوصول إليها . وكان خصومهم الشاميون يسيرون على أقدامهم ولكن العراقيين كانوا راكبين ، وكان يجب أن يستفيدوا من الحركة التى يوفرها لهم هذا الوضع لكى يتمركزوا فيما بين أعدائهم والماء . ثم استطرد «... فلا تقاتلوهم فى فضاء ترامونهم وطاعنوهم ، فإنه ليس لكم مثل عددهم، فإن استهدفتهم لهم لم يلبثوا أن يصرعوكم ، ولاتصفوا لهم حين تلقونهم، فإنى لا أرى معكم رجالة ولا أراكم كلكم إلا فرسانًا ، والقوم لاقوكم بالرجالة والفرسان ، فالفرسان تحمى رجالها والرجالة تحمى فرسانها ، وأنتم ليس لكم رجالة تحمى فرسانكم ، فالقوهم فى الكتائب والمقانب ثم بثوها ما بين ميمنتهم وميسرتهم ، واجعلوا مع كل كتيبة كتيبة إلى جانبها فإن حمل على إحدى الكتيبتين ترجلت الأخرى فنفسَّت عنها الخيل والرجال ، ومتى ما شاءت كتيبة ارتفعت، ومتى ما شاءت كتيبة انحطت ، ولو كنتم فى صف واحد فزحفت إليكم الرجالة فدفعتم عن الصف انتقض وكانت الهزيمة...»(*). والتأكيد على القتال على الأقدام مثير : إذ إن امتلاك الخيول أو الجمال كان مفيدًا جدًا فى القدرة الحركية ، والاستطلاع ، وفى هذه الحالة يمكن السيطرة على ميزات ميدان المعركة ؛ مثل موارد المياه، بيد أن المعارك كانت تحسم عادة بفضل القتال المتلاحم الذى يخوضه جنود المشاة . فلابد أنهم كانوا ينحُّون حرابهم جانبًا ليقاتلوا بالسيوف ، وغالبًا ما كان الأمر ينتهى بطرح خصومهم أرضًا . وربما كان عدم وجود ركاب الخيل، أثناء الفتوح الأولى على الأقل، قد وفر ميزة نسبية للجندى الراجل.

(*) الطبرى، ج٥، ص٥٩٥ .

ويبدو أن الجيش الشامي، الذى انتصر فى هذه المعركة ، كان فى أواخر القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلادى متخصصا فى قتال المشاة المتلاحم . فعندما كانت قواته تتعرض لهجوم الفرسان، كان المشاة يشكلون حائط صف، وقد ركعوا وغرسوا نهايات حرابهم على الأرض ووجهوا نصالها صوب أعدائهم . وكانوا ينتظرون حتى يقترب العدو بالخيول فينهضوا ويوخزوا الخيول فى وجوهها . وكان القيام بهذا يتطلب نظاماً وانضباطًا وقدرًا كبيرًا من ضبط النفس ، ولكن طالما بقى الصف متماسكا صامداً كان هذا الأسلوب فعالاً للغاية. هذه الأساليب العسكرية المنظمة كانت غريبة على تقاليد بدو شبه الجزيرة العربية فى الحروب واعتمادهم على القدرة الحركية والشجاعة الفردية، ولكن ربما تم استخدامها فى المراحل اللاحقة من الفتوح فى الجيوش الإسلامية التى فتحت بلاد المغرب ووسط آسيا .

وهناك تجديدان فى التكنولوچيا العسكرية انتشرا على نطاق واسع فى أثناء الفتوح . فقد كان الركاب[٢٤] المستخدم فى ركوب الخيل غير معروف بالنسبة للمحاربين الفرسان فى العالم القديم. وليس من الواضح متى وأين تم ابتكار الركاب بالضبط . وهناك رسوم جدارية من وسط آسيا ، ربما يرجع تاريخها إلى نهاية القرن السابع أو بداية القرن الثامن ، توضح أن الركاب كان مستخدمًا . أما المصادر المكتوبة فتقول إنها استخدمت للمرة الأولى على أيدى الجيوش العربية المقاتلة فى جنوب إيران (ضد عرب آخرين فى معظم الأحيان) فى ثمانينيات القرن السابع الميلادى. وبحلول القرن الثامن كان قد انتشر على نطاق واسع . وكانت أهمية اختراع ركاب الخيل محل جدل شديد بين المؤرخين على نطاق واسع. وكان هناك رأى يقول إن الركاب فى الغرب اللاتينى قد أتاح تطور الفارس المدرع ثقيل التسليح مع كل النتائج الاجتماعية والثقافية التى نجمت عن هذا. ولا يبدو أن هذا الاختراع كانت له مثل هذه النتائج بعيدة المدى فى العالم المسلم ، على الرغم من أنه قد سهَّل بالتأكيد شن غارات طويلة المدى فى المراحل اللاحقة من الفتوح.

وكان الاختراع العسكرى الثانى فى هذه السنوات الأولى من الفتوح يتمثل فى تطوير المدفعية القاذفة . وكانت القطع الكبيرة منها تعرف باسم المنجنيق ، والقطع الأصغر

تسمى العرّادة[٢٥]. هذه الآلات كانت معروفة قبل الفتوح الإسلامية، وأول مثال تم التحقق منه استخدمه الآفار فى حصن تسالونيكا (فى اليونان) سنة ٥٩٧م. وكانت هذه الآلات القاذفة تعمل بواسطة رجال يسحبون الحبال إلى أسفل فى أحد طرفى الرافعة حتى يتأرجح الطرف الثانى مندفعًا إلى أعلى بسرعة كبيرة ويطلق قذيفة من مقلاع مثبت فى طرفه. والاستخدام الوحيد المسجل للمنجنيق فى المرحلة الأولى من الفتوح الإسلامية (٦٣٢-٦٥٠) يأتينا فى الرواية عن الهجوم العربى على العاصمة الفارسية المدائن / طيفسون ، حيث يقال إن العرب قد استخدموا عشرين من هذه الآلات بناها مهندس فارسى اعتنق الإسلام بناء على أوامر القائد العربى سعد بن أبى وقاص[٢٦]. ومن المدهش أن آلات الحصار لايرد لها ذكر على الإطلاق فى الروايات الواردة عن الفتح العربى للمدن الحصينة مثل دمشق، أو الحصن الرومانى العظيم فى بابليون بمصر ، ولكن من المستحيل أن نقرر ما إذا كان هذا بسبب عدم استخدامها أو لأن المصادر لاتذكرها . وفى القرن الثامن الميلادى نسمع عن أن المسلمين استخدموها لهدم أسوار سمرقند فى سنة ٧١٢م ، وتتأكد هذه المعلومات بوضوح إذا اما تم العثور على رسم يبين كيفية عملها. وفى الوقت نفسه لدينا أخبار عن آلة يقوم بتشغيلها خمسمائة رجل أنزلت العلم المرفوع أعلى المعبد البوذى فى الديُبل بالسند. وعلى العموم، على أية حال، فإن الأمور الحربية المتعلقة بالحصار كانت فيما يبدو أمورًا أساسية؛ وفى الحملات الطويلة الشاقة فيما وراء النهر فقط أوائل القرن الثامن الميلادى يتولد لدينا الانطباع بأن حملات الحصار المنظمة وطويلة المدى كانت موجهة .

ولم يكن لدى المسلمين الأوائل أسلحة سرية ، ولم تكن لهم السيادة على التكنولوجيا العسكرية الجديدة التى يمكنهم بها التغلب على أعدائهم . وكانت المزايا تتمثل ببساطة فى القدرة الحركية، والقيادة الجيدة، وربما كان أهمها جميعا الدافع والروح المعنوية العالية.

ومن الصعب تقدير قيمة الدافع لدى المحاربين فى زمن هذه الفتوح الباكرة. فقد قال سير فرنسيس باكون Sir Francis Bacon إن الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا لم تكن تحب فتح نوافذ على قلوب الرجال والأفكار السرية. وإلى حد ما لا يستطيع المؤرخون

أن يفعلوا هذا. وكل ما نستطيع عمله أن نتأمل ونفكر فيما قالوه، أو كان هناك زعم بأنهم قالوه، عن أفكارهم حول ما كانوا يقومون به.

وقد جاءت أكمل المناقشات وأكثرها تفصيلاً عن دوافع المسلمين فى سلسلة من الخطب التى قيل إن المبعوثين المسلمين ألقوها على مسامع السلطات الفارسية، وقد رأينا بعضها بالفعل. وقد أكد المسلمون مراراً وتكراراً على أنهم لايعبأون بأمور هذه الدنيا؛ وإنما ثواب الجنة هو الذى يدفعهم، وكذلك الاعتقاد بأن الفارسى الميت لن ينال الثواب نفسه قال المغيرة بن شعبة «... إن قتلتمونا دخلنا الجنة، وإن قتلناكم دخلتم النار»[*] فقد كانوا يعملون على أوامر الله المباشرة فقالوا لكسرى إنهم جاءوا إليه بأمر من ربهم، يحاربون فى سبيله وإنهم يعملون بأوامره سعياً وراء تحقيق وعده.

وكثيرا ما يوصف موتى المسلمين (فى الحرب) بأنهم شهداء. ووفقًا للتراث الإسلامى تظهر فكرة أن الذين يموتون فى الجهاد شهداء للمرة الأولى فى الروايات التى تناقلها المؤرخون عن غزوة بدر (٦٢٤م) ويبدو أنه كان مقبولاً بشكل عام أن أولئك الذين قتلوا فى الجهاد يذهبون إلى الجنة مباشرة؛ وفى إحدى المناسبات وُصف موقع معركة قتل فيها كثير من المسلمين بأنه تفوح منه رائحة طيبة. وهناك قصص عن رجال يسعون عمداً إلى نيل الشهادة، أو على الأقل يعرضون أنفسهم للخطر لنيل الشهادة: «وحمل رجل من تميم ممن كان يحمى العشيرة يقـال له سـواد، وجعل يتعرض للشهادة، فقتل بعدما حمل. وأبطأت عليه الشهادة حتى تعرض لرستم يريده، فأصيب دونه»[**]. فى هذه الحالة، من المهم أن نلاحظ الربط بين الرغبة فى الشهادة والالتزام بالتضامن القبلى[٢٧]. وهناك عدد قليل من الأمثلة المتطرفة، مثل الرجل الذى نزع درعه فى المعركة حتى يمكن أن يُقتل بسرعة أكبر[٢٩]، وبذلك ينال ثواب الشهادة؛ بيد أن هذه حالات استثنائية: وليس من غير المعقول أن معظم الناس كانوا يريدون الاستمتاع بثمار نصرهم فى هذه الدنيا قبل أن ينتقلوا إلى مباهج الحياة الآخرة.

(*) الطبرى، ج٣، ص٤٩٦ – ص٤٩٧.

(**) نفسه، ج٣، ص٥٤٥.

وثمة دافع آخر وضعته المصادر فى أفواه المحاربين المسلمين الأوائل هو تحرير الرعايا الفرس من الطغيان حتى يمكنهم اعتناق الإسلام . «قال ربعى بن عامر ... الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ذلك ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبداً ، حتى نفضى إلى موعود الله»(٣٠)(*).

وعلى العموم لم تكن مسألة نشر الإسلام أو تقديم فرصة اعتناق الإسلام تطرح كثيرا باعتبارها سببا من أسباب القتال. فالأكثر شيوعًا الفخر بالعروبة والفخر بالقبيلة . فعندما أراد سعد بن أبى وقاص ، قائد القوات الإسلامية فى العراق ، أن يحث رجاله على الفعال العظيمة ، لجأ إلى استثارة فخرهم بعروبتهم « ... وأنتم وجوه العرب وأعيانهم ، وخيار كل قبيلة ، وعزُّ مَن وراءكم؛ فإن تزهدوا فى الدنيا وترغبوا فى الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة»(٣١)(**) وكثيرا ما تقابل الخطب زهد العرب وأمانتهم برفاهية الفرس وكذبهم. والفخر بإنجازات القبيلة بقى دافعًا مهمًا مثلما كان فى الجاهلية ، ويتضح هذا فى أنصع صوره فى الشعر مثل هذه القصيدة التى أنشدها شاعر مجهول احتفالاً بما حققته قبيلة تميم فى معركة القادسية:

وجدنا الأكثرين بنى تميم ... غداة الروع أصبرهم رجالاً

هم ساروا بأرعن مكفهر ... إلى لجب فزرتهم رعالاً

بحور للأكاسر من رجال ... كأسدَ الغاب تحسبهم جبالاً

(*) نفسه ، ج٣ ، ص٥٢٠ .

(**) النص الذى أورده المؤلف نقلاً عن الطبرى يقف عند عبارة «وعزُّ مَن وراءكم» وقد رأيت أن أثبت جزءا آخر من نص الطبرى (ج٣ ، ص٥٣١– ص٥٣٢) لبيان أن سعد بن أبى وقاص قد خاطب رجاله بالمفاهيم الإسلامية أيضا وليس بنعرة الفخر بالعروبة فقط حسبما يزعم المؤلف الذى ابتسر النص. (المترجم)

تركن لهم بقادس عز فخر	وبالخيفين أياماً طوالاً
مغطمة أكفهم وسوق	بمردى حيث قابلت الرجالا[٣٢](*)

أو هذه القصيدة التى تحتفى بدور قبيلة أسد :

جلبنا الخيل من أكتاف نيق	إلى كسرى فوافقها رعالا
تركن لهم على الأقسام شجوا	وبالحقوين أياما طوالا
وداعية بفارس قد تركنا	تبكىّ كلما رأت الهلالا
قتلنا رستماً وبنيه قسرا	تثير الخيل فوقهم الهيالا
تركنا منهم حيث التقينا	فئاماً ما يريدون ارتحالا

ويأتى الابتهاج بالمعركة والقتل مباشرة من روح عالم ما قبل الإسلام . فقد بقى المجد الفردى والشهرة الفردية على أهميتها أيضا. وفى إحدى النصائح نجد الرغبة فى الجنة تمتزج بالرغبة القديمة فى الشهرة الدائمة فى هذه الدنيا : «قال ربيع بن البلاد السعدى: يا معاشر العرب، قاتلوا للدين والدنيا» ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران ١٣٣) . وإن عظّم الشيطان عليكم الأمر ، فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم ما دام للأخبار أهل»[٣٢](**).

كانت الرغبة فى الشهرة فى هذه الدنيا تتزاوج مع الرغبة فى الثروة . وأحد أكثر الملامح إتساقًا فى قصص الفتوح الباكرة هى الرغبة فى الحصول على الغنائم والابتهاج بوصف الثروات التى تم الحصول عليها. وعادة ما كانت الغنائم توصف بأنها أموال، وبضائع منقولة والعبيد؛ وكان الحصول على السبايا مهمًا فى بعض المناطق دائمًا،

(*) نفسه ، ج٣ ، ص٥٤٠ .

(**) الطبرى، ج٣، ص٥٣٤ .

ولاسيما بربر شمال أفريقيا، إذ كان هو الشكل الأكثر انتشاراً لمكافأة النصر. ومن المثير أنه نادراً ما يرد ذكر الحيوانات خاصة وأنهم كانوا شعبا رعوياً ، وربما لأن المحاربين كانوا قد تخلوا عن أسلوب حياتهم الرعوية السابقة إلى حد كبير . وكان الاهتمام بالحصول على الغنائم يساويه الاهتمام بتوزيعها بالعدل . ولاشك فى أن الكثير من هذه الأوصاف يقصد بها الموعظة بدورها وأن الإنصاف والعدالة التى كان يتم بها توزيع الغنائم كانت تحمل مبالغات بالتأكيد ، بيد أن هذه النقطة تظل حقيقية.

كان لدى الدولة الإسلامية البازغة الرجال ، والمهارات العسكرية ، والقناعة الأيديولوچية والقيادة اللازمة لشن حملة توسع كبرى، وفوق هذا وذاك ، كان قادة الدولة الجديدة يدركون تماماً أن عليها أن تتوسع أو تنهار . وبالنسبة لهم لم يكن هناك سوى مسار واحد للعمل : الفتوح.

الهــوامش

(١) عن الرصافة وتبجيل سان سرجيوس انظر :

E. K, Fowden, The Barbarian Plain: Saint Sergius between Rome and Iran (Berkeley, CA, 1999).

(٢) Quoted in A. Jones, Early Arabic Poetry, 2 vols . (Oxford, 1992), I, p.I.

(٣) C. Lyall, The Diwan of cAbid ibn al-Abras, of Asad and cAmir ibn at Tufayl, of'Amir ibn Sacsscah (London, 1913).

(٤) Lyall, Diwans, p. 106.

(٥) عن أحسن مقدمة لتاريخ ملوك جنوب شبه جزيرة العرب، انظر :

R. Huyland, Arabia and the Arabc : From the Bronze Age to the Coming of Islam (London, 2001), pp. 36-57.

(٦) G. W. Heck, 'Gold mining in Arabia and the rise of the Islamic state', Journal of the Economic and Social History of the Orient 42 (1999): 364-95.

(٧) (المغيرة بن شعبة الأسيدى)

Tabari, Ta'rikh, ed. M.J. de Goeje et al. (Leiden 1879-1901), I, pp. 2241-2.

(٨) النعمان بن المقرن

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2239-40.

(٩) G. M. Hinds, "Maghazi", Encyclopaedia of Islam, 2nd edn.

(١٠) هذه المناقشة للجهاد قائمة على أساس :

R. Firestone, Jihad: The Origin of Holy War in Islam (Oxford, 1999).

(١١) انظر :

R- P. Mottahedeh and R. al-Sayyid, 'The idea of Jihad in Islam before the Crusades', in the Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World, ed. A. E. Laiou and R- P. Mottahedeh (Washington, DC, 2001), pp. 23-39.

(١٢) النعمان بن المقرى :

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2240.

(١٣) Quoted in F. M. Donner, The Early Islamic Conquests (Princeton, NJ, 1981), p. 67. See also M. Lecker, 'The estates of 'Amr b. al-'As in Palestine', Bulletin of the School of Orienta1 and African Studies 52 (1989): pp. 24-37.

(١٤) Quoted in Lecker, 'Estates', p. 25 from Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p.146.

(١٥) عن هذا انظر :

Donner, Early Islamic Conquests, p. 81

(١٦) Firestone, Jihad, pp. 124-5.

(١٧) Donner, Early Islamic Conquests, P-135.

(١٨) Ibid., pp. 205-9.

(١٩) عن الصور المرئية انظر :

D. Nicolle, Armies of the Muslim Conquests (London, 1993); Nicolle, 'War and society in the eastern Mediterranean', in War and Society in the Eastern Mediterranean 7 th to 15 th centuries, ed. Y. Lev (Leiden, 1997)- PP- 9-100'

(٢٠) Tabari, Tarikh, II, p. 1315.

(٢١) عن الأسلحة عموما انظر :

H. Kennedy, The Armies of the Caliphs (London, 2001),pp. 173-8; on swords, see R. Hoyland and B. Cilmour, Medieval Islamic Swords and Swordmaking: Kindi's treatise 'On swords and their kinds' (London, 2006).

(٢٢) See Kennedy, Armies, pp. 169-72.

(٢٣) Tabari, Ta'rikh, II, pp. 554-5.

(٢٤) See H- Kennedy, 'The military revolution and the early Islamic state', in Noble Ideals and Bloody realities: Warfare in the Middle Ages, ed. N. Christie and M, Yazigi (Leiden, 2006), pp. 197-208.

(٢٥) عن آلات الحصار الإسلامية ، انظر :

P, E. Chevedden, 'The hybrid trebuchet: the halfway step to the counterweight trebuchec', in On the Social Origins of Medieval Institutions. Essays in Honor of Joseph F. O'Callaghan, ed. D. Kagay and T. Vann (Leiden, 1998), pp. 179-22.

(٢٦) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2427-8.

27.Tabari, Ta'rikh, I, p. 2237, ascribed to al-Mughira b. Stnr'ba.

Tabari, Tarikh, I, p. 2309. (٢٨)

Awfb. Harith, quoted in Firestone, jihad, p. 114. (٢٩)

Tabari, Ta'rikh , I,p. 2271, ascribed to Rib ci b. cAmir. (٣٠)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2289 (٣١)

Tahari, Ta'rifci I,p. 2365. (٣٢)

Taliari, Ta'rikh, 1. pp. 2302-3. (٣٣)

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2293-4. (٣٤)

(٢)

فتح الشام وفلسطين

كانت أراضى بلاد الشام وفلسطين من ولايات الإمبراطورية البيزنطية التى تحكمها القسطنطينية . وفى سنة ٦٣٢م ، التى شهدت وفاة النبى محمد، كان البيزنطيون يحكمون أيضا الكثير من أراضى البلقان ، وجنوب إيطاليا وصقلية ، وشمال أفريقيا . وكان الرومان ومن بعدهم البيزنطيون يحكمون الأراضى الواقعة شرق المتوسط على مدى ستمائة سنة دونما انقطاع. وعندما انهارت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب وسقطت فى خضم الفوضى خلال القرن الخامس الميلادى، استمر ازدهار الولايات الغنية على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط . واستمرت السلطات الإمبراطورية فى القسطنطينية فى جمع الضرائب ، والاحتفاظ بجيش نظامى وإرسال حكام ليحكموا الولايات . وبينما اضمحلت المدن فى الغرب وصارت قرى، كانت مدن بلاد الشام لا تزال تتجمل بشوارع مستقيمة واسعة ، والأسواق ، والحمامات والكنائس.

وفى كل من المدينة والريف ، كان المشهد فى بلاد الشام محكومًا بتراث ألف سنة من حكم النخب التى تتحدث اليونانية والتى تشربت التعليم والمشاعر الكلاسيكية . وقد سادت الأطلال الكبيرة للعالم القديم الوثنى مدنًا مثل بالميرا، وهليوبوليس (بعلبك) وجراسا (جرش) وبترا ، كما هو الحال اليوم. أما المدن الأصغر والقرى فقد ازدانت بصفوف الأعمدة والأروقة التى عكست على نطاق أصغر، ولكنه لم يكن بالضرورة أقل رونقًا ، أشكال العمارة اليونانية الرومانية.

وربما كانت المعابد الكبرى فى بالميرا وبعلبك تحكم المدن التى كانت قائمة فيها، ولكنها كانت فى معظمها أطلالاً غير مسقوفة . ففى جرش كان فناء معبد آرتميس الكبير يستخدم لأفران الفخار، لدرجة أن الساحة المرصوفة الكبرى التى كانت تحيط بمذبح هذه الربة كانت قد تحولت إلى الاستخدام الصناعى وضجيجه، على حين كان المعبد نفسه قد أغلق وأحيط بالقضبان وبات مأوى للثعابين والعفاريت. وكانت بلاد الشام ومصر مسيحية كلها . ذلك أن المسيحية ، قد تأسست فى هذه الأنحاء ، وكان فى أنطاكية أن أطلق على أتباع الديانة الجديدة اسم المسيحيين للمرة الأولى . وعلى مدى القرون الثلاثة الأولى بعد مجئ المسيح، تنافس المسيحيون مع الديانات الأخرى فى سوق الديانات الكبرى شرق المتوسط. وكان هناك وثنيون يتحدثون اليونانية يعبدون زيوس وأبوللو ، وقروريون آراميون يعبدون الآلهة نفسها ولكنهم يسمونها بعل أو هدَّاد على أسماء الآلهة القديمة التى كانت عتيقة بالفعل عندما دخل الإسرائيليون أرض كنعان للمرة الأولى.

وبحلول القرن السادس الميلادى ، على أية حال، كانت المسيحية ديانة الأغلبية فى المدن والريف ، وفى الجبال والصحراء. وكانت هناك جماعات يهودية مهمة ، لاسيما فى فلسطين ، كما كانت لا تزال هناك أقاليم ودوائر اجتماعية بقيت بها الوثنية الكلاسيكية : وكان الرجال لا يزالون يضعون الفسيفساء لأرضيات منازلهم بها صور من الأساطير والخرافات القديمة، ويصعب الجزم إذا ما كانوا لا يزالون على إيمانهم بها أم لا .

كذلك كانت المسيحية ديانة الهيراركية الإمبراطورية الحاكمة، وكان هذا أمرًا مهمًا فيما يتعلق بشكل المجتمع . ولابد أنه كان من المستحيل فى القرن السادس لأى واحد غير مسيحى أن يتولى منصبًا حكوميًا مهمًا . بيد أن مسيحيى بلاد الشام لم يكونوا جماعة متجانسة إطلاقًا. ففى أثناء القرن السادس برزت اختلافات عميقة بين المجموعات المختلفة من النصارى. وكانت النقطة الأساسية فى الموضوع ألوهية المسيح وتجسده : هل كان المسيح بشرًا كاملاً وإلهًا تامًا فى آن معا، أم كانت له طبيعة إلهية واحدة فقط، وأن إنسانيته على الأرض تبدو فحسب مثل طبيعتنا البشرية؟ هذا النقاش اللاهوتى الذى يبدو غموضه واضحًا أثار عواطف وغضبًا هائلا لأنه عكس انقسامات

أوسع فى المجتمع . وفى مخاطرة التبسيط المخل لموقف معقد للغاية ، وعلى العموم كان الذين آمنوا أن المسيح كان إلهًا تمامًا وإنسانًا تامًا (أنصــار الطبيعتين Diophysits لأنه يؤمنون بطبيعتين للسيد المسيح ، كما يُطلق عليهم اسم الخلقدونيين نسبة إلى مجمع خلقدونية الذى عقد سنة ٤٥١م حيث تم تبنى هذا المذهب للمرة الأولى)، من النخب الحضرية الناطقة باليونانية ، على حين كان أولئك الذين آمنوا بأن المسيح له طبيعة واحدة إلهية (مونوفيزيت Monophysites) من القرى المتحدثة بالآرامية وأديرة الريف ومضارب خيام المسيحيين العرب. كذلك كانت هناك اختلافات إقليمية : فيبدو أن معظم المسيحيين فى فلسطين كانوا من أتباع مذهب الطبيعتين ، على حين يحتمل أنه كان هناك توازن بين الجماعتين فى شمال الشام.

كانت السلطات الإمبراطورية من أتباع مذهب الطبيعتين المتشددين واعتبرت أنصار مذهب الطبيعة الواحدة مخالفين وهراطقة ، واضطهدوهم بوحشية على فترات متقطعة . وكان معنى هذا أن نسبة كبيرة ومهمة من السكان المسيحيين فى بلاد الشام كانوا مستبعدين عن وظائف الحكومة الإمبراطورية ولم يكونوا بالضرورة يرون أن مصلحتهم مساندة الكنيسة الإمبراطورية ضد الغزاة الخارجيين.

كانت بلاد الشام حتى سنة ٥٤٠م تقريبًا تتمتع بفترة من الازدهار المستمر والنمو السكانى. ففى كل مكان كانت القرى تتوسع كما كان يتم استصلاح أراض جديدة على حواف الصحراء. ومنذ سنة ٥٤٠م تقريبًا ، أى قبل قرن من الفتح الإسلامى ، بدأت هذه الصورة السعيدة فى التغير. ففى تلك السنة ضربت سلالة جديدة وقوية من أوبئة الطاعون المنطقة بأسرها . وكانت الوفيات سريعة ومرعبة . ومن المحتمل أن المدن التى كان سكانها أكثر كثافة، قد تأثرت على نحو أسوأ ولكن القرى أيضا عانت عندما انتشر الوباء . وربما كان البدو هم الأقل تأثرًا فى صحرائهم. وقد انتشر الوباء بسبب البراغيث التى تعيش على الفئران، وفى المدن لابد أن الفئران كانت منتشرة كما هو الحال اليوم، أما فى مضارب البدو، فقد كان هناك القليل من الطعام الذى يكفى البشر، دعك من القوارض، وليس هناك مكان تختبئ فيه الهوام والحشرات.

وقد عاد الوباء بانتظام مرعب طوال ما بقى من القرن السادس الميلادى وفى القرن السابع وفى ظل غياب الإحصائيات يستحيل أن نتأكد من التأثير الذى تركه على السكان . ويُقدِّر المؤرخون أن الموت الأسود ، وباء الطاعون الذى اجتاح الشرق الأوسط والغرب الأوربى فى عامى ١٣٤٨-١٣٤٩م، ربما يكون قد قتل ثلث السكان . وليس هناك سبب يدعونا إلى الظن بأن وباء القرن السادس كان أقل قسوة . فكثير من المدن والبلدات والقرى التى كانت مزدهرة فى المنطقة لابد وأن تكون قد بدت خاوية متدهورة . وعندما دخل الفاتحون المسلمون مدن الشام وفلسطين فى ثلاثينيات القرن السابع وأربعينياته ربما يكونوا قد ساروا فى الشوارع التى كان العشب والشوك قد نما فيها عاليًا بين الأعمدة وحيث تجمع ما بقى من السكان فى جماعات قليلة العدد، احتلت البيوت الفخمة التى كان أسلافهم قد استمتعوا بها.

لم تكن الأمراض الوبائية المشكلة الوحيدة التى واجهت بلاد الشام فى أثناء النصف الثانى من القرن السادس الميلادى . فقد كانت العلاقات بين البيزنطيين والفرس الساسانيين سلمية إلى حد كبير فى أثناء القرن الخامس وبداية القرن السادس. وكانت كل امبراطورية تحترم حدود الأخرى ومناطق نفوذها في بادية الشام جنوبيًا وجبال أرمينيا فى الشمال. وعلى أية حال، اندلعت فى منتصف القرن السادس أعمال حربية مدمرة على نطاق واسع بين القوتين العظميين. فقد غزا الملوك الساسانيون الأراضى البيزنطية فى عدد من المناسبات . ففى سنة ٥٤٠م نهبوا أنطاكية العاصمة الكبرى فى الشرق وفى سنة ٥٧٣م فتحوا العاصمة الإقليمية المهمة أفاميا . وفى كل من المناسبتين عادوا بكمية كبيرة من الغنائم ونقلوا أعدادًا كبيرة من السكان إلى مدن جديدة داخل الإمبراطورية الفارسية.

وإذا كانت العلاقات قد تدهورت فى القرن السادس، فإنها باتت أسوأ فى القرن السابع. ففى سنة ٦٠٢م تم اغتيال الإمبراطور موريس وعائلته كلها على أيدى الجنود المتمردين . وقبل بضع سنوات كان الإمبراطور قد منح حق اللجوء للملك الشاب النشيط خسرو الثانى عندما أزيح عن عرشه بصفة مؤقتة . وقد استغل خسرو آنذاك وفاة الرجل الذى أحسن إليه لشن هجوم مدمر على الإمبراطورية البيزنطية .

وأحرزت قواته عددًا من الانتصارات المدوية. ففى سنة ٦١١م غزت الجيوش الفارسية بلاد الشام، وسقطت القدس فى أيديهم سنة ٦١٤م وفى سنة ٦١٥م وصل الفرس إلى سواحل البسفور قبالة القسطنطينية نفسها. وفى سنة ٦١٩م استولوا على الإسكندرية ووقعت مصر كلها فى أيديهم.

كان استرداد البيزنطيين عافيتهم الإنجاز الذى حققه الإمبراطور هرقل (٦١٠- ٦٤١م) فقد كان واليًا على شمال أفريقيا ولكنه أبحر فى سنة ٦١٠م إلى القسطنطينية ومعه جيشه لكى يستولى على العرش من فوكاس المغتصب . وقد ساد عهده الصراع مع الفرس. وبعد عدة سنوات ، عندما بدا وكأن الجيوش الفارسية لايمكن إيقافها ، كان هرقل قد قلب الموازين بشكل درامى عندما شن هجومًا خلف خطوط العدو فى سنة ٦٢٤م . وفى حركة تتسم بالجسارة العظيمة والرؤية الاستراتيچية الباهرة ، كان قد قاد جيشا من ساحل البحر الأسود فى تركيا ، عبر غرب إيران وشمال العراق، ونهب معبد النار الشهير فى شيزر وقصر خسرو فى دشتجرد . ومع موت منافسه الرئيسى خسرو الثانى (كسرى) فى سنة ٦٢٨م والانقسامات التى أعقبت ذلك فيما بين الفرس وهم يناضلون لإيجاد حاكم جديد ، استطاع هرقل أن يعقد صلحًا أعاد الحدود القديمة بين الإمبراطوريتين على امتداد نهر الخابور. وفى سنة ٦٢٩م تفاوض على انسحاب الجنود الفرس من بلاد الشام ومصر وانطلق فى إعادة الحكم البيزنطى فى الولايات التى تم استردادها حديثا. وفى ٢١ مارس سنة ٦٣٠م استمتع بأعظم لحظات نصره عندما أعاد صليب الصلبوت ، الذى كان الفرس قد أخذوه إلى بيت المقدس.

وعلى الرغم من أن الفرس كانوا قد منوا بهزيمة قاصمة ، فإن فتح بلاد الشام وفلسطين كان له أثر مدمِّر للغاية على السلطة البيزنطية فى منطقة شرق المتوسط . وبغض النظر عن إراقة الدماء التى سببتها الحرب ، فإنه يبدو أن كثيرين من أبناء النخبة الناطقة باليونانية قد هاجروا إلى المناطق الآمنة فى شمال أفريقيا أو روما[1]. فقد كان القتال مدمرًا جدًا لاسيما فى المدن، ولكن ربما كان الأهم من هذا ضياع تقاليد الحكم والإدارة الإمبراطورية . فعلى مدى معظم فترة الرسالة النبوية كانت بلاد

الشام وفلسطين تحت الحكم الفارسى، لا البيزنطى، ولم يحدث حتى سنة ٦٣٠م ، أى قبل عامين من وفاة النبى ، أن أُعيدت السيطرة البيزنطية. وعلى الرغم من هذا، فلابد أن هذه السيطرة كانت واهية للغاية ، وربما كانت هناك مناطق عديدة حيث لم يكنْ الحكم البيزنطى موجودًا تقريبًا . ولابد أن معظم الشوام من الأجيال الشابة لم تكن لديهم الخبرة أو الذاكرة عن الحكم الامبراطورى، كما لم يكن لديهم أى سبب يجعلهم موالين للقسطنطينية . وحتى بينما كانت عملية إعادة الحكم البيزنطى تجرى ببطء برزت الاختلافات الدينية التى كانت قد قسَّمت بلاد الشام فى القرن السادس على السطح مرة أخرى. وكان الإمبراطور هرقل قد عقد العزم على أن يفرض التوافق الدينى بالقوة على السكان المسيحيين الذن رفضوا موقفه المذهبى على نطاق واسع .

كانت السيطرة البيزنطية على بلاد الشام قد رسخت على مدى أكثر من خمسة قرون. وإذا كان الإسلام قد ظهر قبل خمسين سنة، ولو كان المسلمون الأوائل قد حاولوا غزو بلاد الشام وفلسطين فى ثمانينيات القرن السادس الميلادى، وليس فى ثلاثينيات القرن السابع الميلادى، فربما كان يمكن طردهم بسرعة شديدة ؛ إذ إن الولايتين كانتا تحت السيطرة الحازمة للحكومة كما كانت الدفاعات جيدة التنظيم . ومصادفة أن أول الجيوش الإسلامية ظهرت بسرعة بعد الحوادث المضطربة فى الحرب العظمى بين بيزنطة وفارس كانت بمثابة الشرط الأساسى لنجاح جيوش المسلمين(*).

وربما كانت بلاد الشام قد خربت من جراء الحرب والطاعون ولكن بالنسبة لبدو شبه الجزيرة العربية كانت لا تزال هى مورد النبيذ والزيت والغلال . فقد كانت النواحى القريبة من غزة وبُصرى، حيث تحفُّ الأرض الزراعية بالصحراء، محل الزيارات الكثيرة التى يقوم بها تجار مكة وغيرها من المراكز التجارية فى شبه الجزيرة العربية.

(*) يستخدم المؤلف «لو» مرة أخرى ، ولكنه يريد هنا ألا ينسب الفضل لقوة الجيوش الإسلامية ، أو تنظيمها ، أو حماستها الدينية – وهى أمور ذكرها فى الصفحات السابقة – وينسب الأمر إلى ضعف العدو فحسب . (المترجم)

وكانت البلاد أرضاً مألوفة بالنسبة لقادة الجماعة المسلمة الباكرة وكان من الطبيعى أن تكون أول أهداف الجيوش الإسلامية الجديدة . والمأثور عن أن النبى نفسه زار بلاد الشام قبل أن تنزل عليه الرسالة خبر تاريخى قديم تؤكده شواهد جيدة. ذلك أن المدينة الفلسطينية بيت المقدس كانت القبلة الأولى التى يتجه إليها المسلمون فى صلاتهم ، قبل أن يتحولوا باتجاه مكة . وكان أبو سفيان ، زعيم المعارضة المكية للنبى يمتلك ضياعاً فى الأردن، بما فيها قرية قبش فى ناحية البلقاء الخصيبة جنوب عمان التى اعتاد أن يستخدمها قاعدة لنشاطه التجارى(٢). كانت مدن بلاد الشام مستودعات التجارة على امتداد حافة الصحراء وكان كثير من أبناء النخبة المسلمة الجديدة قد زاروا البلاد وعرفوها جيداً. وعندما كان النبى محمد، فى أواخر حياته ، يبحث عن مناطق توفر موارد جديدة للمسلمين ، كان طبيعياً أن يتطلع صوب الشمال. ففى هذا الصدد كانت الشام تختلف تماماً عن العراق التى كان من زاروها قبل بداية الفتوح من أبناء النخبة المسلمة الجديدة عدداً قليلاً كما كانت بلاداً غير مألوفة بالنسبة لهم .

كانت هجمات المسلمين على بلاد الشام قد بدأت على نطاق صغير ولم تكن ناجحة كثيرا فى العامين الأخيرين من حياة النبى. ويشاهد زوار الأردن المسافرون جنوبا على «الطريق الملكى السريع»، وهو الطريق القديم الذى يمتد على طول المرتفعات الخصيبة شرق البحر الميت ، من الكرك إلى البتراء ، قبور الأبطال المسلمين الأوائل ، بقبابها المرتبة وأدغال الأشجار ، وهى حديثة جداً. ولكن موقعها يبدو من الآثار الحقيقية الباقية عن المواجهة بين المسلمين والبيزنطيين . وفى سنة ٦٢٩م كان النبى قد أرسل سرية فى اتجاه بلاد الشام ، وربما كانت تبحث فقط عن الغنائم فى أثناء الاضطراب الذى أعقب انسحاب الجيش الفارسى. وبينما كانت القوة الإسلامية الصغيرة تسير على «الطريق الملكى»، قابلتهم تجريدة من الجنود البيزنطيين، ومعظمهم من أبناء القبائل العربية المحلية، يسيرون جنوبياً على الطريق لإعادة الحكم البيزنطى إلى المنطقة . وفى اشتباك قصير عند مؤتة، هُزم المسلمون، وأجبروا على الفرار، وقتل عدد من قادتهم ودفنوا فى المقابر التى ما نزال نراها اليوم. ومن بين المسلمين الذين فروا ليحاربوا يومًا آخر كان خالد بن الوليد «سيف الله المسلول» الذى قيض له فيما بعد أن يلعب دورًا مهمًا فى فتح الشام.

كانت هزيمة مؤتة إهانة للدولة المسلمة الناشئة ولكن يبدو أن النبى كان لا يزال على تصميمه فى مواصلة مشروع غزو بلاد الشام . ففى سنة ٦٣٠م أرسل سرية تم التخطيط لها بحذر ضد تبوك فى شمال الحجاز ربما كانت تجربة للهجمات على بلاد الشام . ومن بين القادة الذين اكتسبوا خبرة عسكرية مفيدة فى هذه الحملة كان عمرو بن العاص، الرجل الذى سوف يرسل فيما بعد لفتح مصر بعد عقد من الزمان. ولايمكن أن يكون هناك شك فى أنه حينما شرعت القيادة العليا الإسلامية فى فتح بلاد الشام، فإنهم كانوا يواصلون السياسة التى كانت قد أرسيت بالفعل على يدى نبيهم.

وبعد وفاة النبى مباشرة، أرسل الخليفة أبوبكر الصديق حملة أخرى إلى بلاد الشام، وهى حملة كانت علامة على بداية الفتح الحقيقى للبلاد . عند هذه النقطة يصير ترتيب الحوادث تاريخيًا غاية فى الارتباك. فلدينا كتلة هائلة من المأثورات عن المعارك الرئيسية والاشتباكات الصغرى وعن الاستيلاء على المدن. ولكن الحقيقة أنه لا توجد طريقة للتوفيق بين مختلف الهياكل التأريخية التتابعية التى زاد فيها مختلف المؤرخين المسلمين ، كما أن هناك القليل جدًا من المصادر الخارجية التى يمكن أن تعطينا أى نوع من التوجيه . وكما اشتكى المؤرخ المسلم الكبير «ابن جرير الطبرى» عندما كان يجمع روايات الفتح قال ما نصه : «قال أبوجعفر : ونذكر الآن أمر فِحل إذْ كان فى الخبر الذى فيه من الاختلاف ما ذكرت من فتوح جند الشام. ومن الأمور التى تُستنكر وقوع مثل هذا الاختلاف الذى ذكرته فى وقته ؛ لقرب بعض ذلك من بعض[٣](*)». وفى النهاية ، لا يسعنا سوى أن نكون متأكدين من أن إرسال الحملات بدأ منذ سنة ٦٣٢م ، وأنه بعد ثمانى سنوات، أى سنة ٦٤٠م، كانت بلاد الشام كلها تحت نوع ما من الحكم الإسلامى باستثناء مدينة قيسارية الساحلية. والرواية التالية قامت على أساس التتابع الزمنى الذى يحظى بأكبر اتفاق عام، ولكنه يجب أن يؤخذ بحذر كثير.

---

* الطبرى ، ج٣ / ص٤٤٢ .

كان هدف هذه الحملات الباكرة تأييد سيطرة المدينة المنورة على القبائل العربية على حواف المناطق المستقرة. فعلى الحدود الغربية للأرض الخصيبة فى العراق وعلى امتداد حافتى وادى النيل فى مصر، كانت الحدود بين الصحراء والزرع عبارة عن خط ثابت نسبيًا بين إقليم بيئى وآخر. أما فى بلاد الشام فإن التمايز يبدو بينهما أقل وضوحًا . إذ إن التحرك شرقًا من ساحل البحر المتوسط الذى تتوفر به المياه، يجعلنا ندخل فى فضاء أرض تصير جرداء بالتدريج. وعند خط ٢٠٠مم إيزوبايت (أى الخط الذى بعده تقل نسبة الأمطار السنوية عن ٢٠٠مم فى المتوسط) تكون الزراعة المستقرة مستحيلة بدون مياه الرى المتوفرة فى الواحات. ويقع غرب هذا الخط إقليم يمكن استخدامه للرعى من جانب البدو أو للزراعة الجافة . ذلك أن كثيرًا من البدو كانوا مزارعين لبعض الوقت أيضًا، يزرعون حقولاً صغيرة من الغلال كما يقومون برعى حيواناتهم . وقد أدت سياسة ضمان إخلاص بدو الشام للإسلام بالضرورة إلى الدخول فى الصراع ضد السلطات الإمبراطورية البيزنطية وحلفائهم العرب . وكانت سياسة واعية وعمدية للغاية من جانب الخليفة أبى بكر الصديق وبقية القيادة الإسلامية: إذ كان على جميع البدو العرب إعلان ولائهم للدولة المسلمة ، وأولئك الذين لم يفعلوا ذلك طواعية كان لابد من إجبارهم.

ويقال إن أبا بكر جرد أربعة جيوش صغيرة لكى تعمل بصورة مستقلة فى مناطق الحدود شرق البحر الميت ووادى الأردن ، وقد رفعوا الرايات على رماح القادة إعلانًا لسلطتهم. ولابد أن اختيار القادة كان أمرًا مهمًا للغاية فى تاريخ الدولة الإسلامية الباكرة. وكان أحدهم يزيد بن أبى سفيان، الذى أخذ معه أخاه معاوية. وكما رأينا، كانت للعائلة بالفعل ممتلكات فى بلاد الشام وكانت على معرفة جيدة بالمنطقة . وقُيِّض ليزيد أن يكون أحد القادة المسلمين البارزين فى الفتح ، وقد ساعده هذا هو وأخاه على تأسيس سلطة عائلتهما فى بلاد الشام. ومات يزيد بالطاعون قبل أن تكتمل الفتوح نهائيًا، ولكن أخاه معاوية ورث دوره . وتم بناء قاعدة السلطة فى بلاد الشام أثناء الفتوح وفى أعقابها مباشرة ؛ مما ساعده على فرض نفسه أول خليفة أموى سنة ٦٦١م وأن يحكم العالم المسلم كله من دمشق.

وثمة تعيين آخر كانت له نتائجه بعيدة المدى هو تعيين عمرو بن العاص ، الذى كان داهية أكثر منه محاربًا عظيمًا ، كان هو أودسيوس المراوغ فى الجيوش الإسلامية الباكرة. وكانت خلفيته بوصفه تاجرًا فى غزة بمثابة التوصية لدى النبى، الذى كان قد اختاره لجمع أموال الزكاة من القبائل على الطريق من المدينة إلى بلاد الشام. وقد اختار أن يقود رجاله، ويقال إن عددهم كان ثلاثة آلاف رجل ، ومنهم كثير من مكة والمدينة(٤)، إلى المنطقة التى كان على ألفة بها بالفعل. وسار على امتداد ساحل البحر الأحمر حتى رأس خليج العقبة ثم اتجه غربًا وعسكر مع رجاله ، فى المنخفض الرملى الكبير بين الأردن وفلسطين والمعروف باسم «وادى عربة» . ومن هناك صعدوا الجرف إلى هضبة النجف قبل أن يتوجهوا صوب البحر عند غزة . وهنا بدأ عمرو التفاوض مع القائد العسكرى المحلى ، وربما يكون قد طلب منه الأموال، وهناك حكاية مأثورة عن أن القائد البيزنطى حاول أسره أو قتله فى أثناء محادثاتهما . وأخيرًا ، فى ٤ فبراير ٦٣٤م(٥)، جرت معركة هزم فيها عمرو وجيشه الجيش البيزنطى الصغير عند قرية تسمى داثين بالقرب من غزة، وقتل قائدها . وترك الانتصار العربى تأثيرًا سريعًا . فقد انتشرت الأنباء بسرعة ، ولدينا خبر بأن جماعة يهودية قرب قيسارية أعلنت فرحها صراحة لموت الضابط البيزنطى وإهانة السلطة البيزنطية(٦).

وربما كان النصر الذى حققه المسلمون فى داثين صغيرًا ولكنه حوَّل السلطات البيزنطية تجاه التهديد الجديد القادم من الجنوب. كان الإمبراطور هرقل هو القائد الأعلى . وكان عمره حوالى ستين سنة فى ذلك الوقت ، ومن المؤكد أنه لم يكن نزيلاً مدللاً فى قصور القسطنطينية الشاسعة الفاخرة ؛ وإنما كان رجلاً يتمتع بقدر هائل من الخبرة العسكرية، معتادًا تمامًا على مشاق الحملات العسكرية ومصاعبها . وكان أيضا فى قمة قوته كما كان ، حتى عندما بدأت الغارات الإسلامية الباكرة على بلاد الشام، قد فرغ لتوه من الاحتفال بالانتصار العظيم وعودة صليب الصلبوت إلى القدس. ولم يقم هرقل أبدا بقيادة جيوشه ضد المسلمين (ولكن أيضا لم يقم أحد من الخلفاء بنفسه بقيادة جيوش الإسلام) ، ولكنه بقى خلف الخطوط فى الشام، فى حمص أو فى أنطاكية، يوجه العمليات ، ويعيِّن القادة ويصدر التعليمات . والصورة التى ترسمها

المصادر العربية لهرقل صورة مثيرة جداً[٧]؛ فهو مشهور بذكائه الحاد وحكمته وقدرته على التنبؤ بالمستقبل . وفى إحدى القصص ؛ يحكى أبوسفيان الأرستقراطى المكى كيف رأى هرقل عندما كان يزور بلاد الشام مع جماعة من التجار . «كنا قوماً تجاراً ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا ، فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله، لم نأمن ألا نجد أمنا ، فخرجت فى نفر من قريش تجار إلى الشام، وكان وجه متجرنا منها غزة، فقدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس، وأخرجهم منها، وانتزع له منهم صليبه الأعظم، وكانوا قد استلبوه إياه ، فلما بلغ ذلك منهم، وبلغه أن صليبه قد استنقذ له – وكانت حمص منزله – خرج منها يمشى على قدميه متشكراً لله حين ردَّ عليه ما ردَّ ، ليصلى فى بيت المقدس، تُبسط له البُسط ، وتلقى عليها الرياحين ، فلما انتهى إلى إلياء وقضى فيها صلاته ، ومع بطارقته وأشراف الروم ...»[٨] فهو يظهر هنا منتصراً ولكنه متواضع ومتدين(*).

وفى عدد من الحكايات ، قيل إن هرقل اعترف بعظمة النبى محمد وكان يود لو أسلم لو لم يكن النبلاء البيزنطيون على هذه الدرجة من العداء للفكرة. وبالنسبة للعرب كان هو المفتاح والقائد الرمزى للمقاومة البيزنطية لجيوش الإسلام ، العدو القديم. وتظهره المصادر العربية فخوراً وحاكماً فردياً ولكنه أيضا يمر بلحظات عندما يكون بمفرده بعيداً عن مستشاريه وحاشيته يرى فيها مدى قوة المسلمين ويعترف بأن السيادة ستكون من نصيبهم . والصورة التى ترسمها المصادر العربية لهرقل ليست غير متعاطفة تماماً : فهو شخصية مأساوية لأن عدم اعتناقه الإسلام كان يعنى نهاية حياته بالمهانة والفشل.

وحتى هذه النقطة كانت الهجمات التى يشنها المسلمون على بلاد الشام قد تصاعدت إلى ما هو أكثر قليلاً من مناوشات الحدود. فقد بدأت المرحلة التالية من الفتوح مع وصول خالد بن الوليد ورجاله بعد مسيره من العراق عبر الصحراء ،

* النص كاملا من الطبرى، ج٢ ، ص٦٤٥- ص٦٤٦ .

حيث كان يشن الغارات على طول حدود الصحراء. ولقيت مسيرة خالد عبر بادية الشام، ومعه حوالى خمسمائة من قواته، حفاوة وتبجيلاً فى التاريخ والأسطورة على السواء[٩] : فالمصادر العربية رأت فى تحمله أعجوبة ومعجزة؛ ورأى الباحثون المحدثون فيه واحداً من أساتذة الاستراتيجية[١٠]، وتروى القصة غالبًا كيف أنه عبر صحراء لا ماء فيها على مدى ستة أيام بأن جعل بعض الإبل تشرب من الماء كميات أكثر مما تحتاجها ، وربط فكيها حتى لاتجتر ، ثم ذبحها واحداً بعد الآخر حتى استطاع رجاله أن يشربوا الماء من بطونها . وفى مرحلة أخرى، عندما كان خالد ورجاله يواجهون العقبات وحدهم، ويعانون شدة العطش ، سأل أحد رجاله، رافع الذى كان فى المنطقة من قبل ، عما إذا كانت لديه فكرة عن الماء . وقال رافع إن الماء فى متناولهم «... نادى خالد رافعًا : ما عندك ؟ قال : خير، أدركتم الرِّى وأنتم على الماء. وشجعهم وهو متحير أرمد، وقال : أيها الناس، انظروا علمين كأنهما ثديان . فأتوا عليهما وقالوا : علمان ، فقام عليهما فقال : اضربوا يمنة ويسرة - لعوسجة كقعدة الرجل - فوجدوا جذمها ، فقالوا : جذم ولانرى شجرة ، فقال احتفروا حيث شئتم ، فاستثاروا أوشالاً وأحساء رواء، فقال رافع : أيها الأمير ، والله ما وردت هذا الماء منذ ثلاين سنة ، وما وردته إلا مرة وأنا غلام مع أبى»[١](*)، وهكذا تمضى الرواية لتقول إنهم جهزوا أنفسهم وهاجموا العدو، الذى لم يستطع أن يُصدق أن أى جيش يمكنه عبور هذه الصحراء إليهم.

والمشكلة أن الروايات الواردة عن هذه الحملة مشوشة للغاية، على الرغم من حيويتها. ويمكن أن نكون متأكدين من أن خالد بن الوليد عبر الصحراء بالفعل من العراق إلى بلاد الشام فى وقت ما من الربيع أو مطلع صيف سنة ٦٣٤م ، وأن ذلك كان عملاً خالدًا من أعمال الاحتمال والجلد العسكرى وأن وصوله إلى بلاد الشام كان عاملاً مهمًا فى انتصار الجيوش الإسلامية هناك. والمشكلة أن بعض المصادر توحى بأنه

---

* الطبرى، ج٣ ، ص٤٠٩- ص٤١٠ . (المترجم)

ذهب على الطريق الجنوبى الطويل بجوار دومة الجندل ، على حين أن هناك أخرين متأكدين بالدرجة نفسها من أنه قام برحلته عن طريق بالميرا فى الشمال. وهناك مناقشات جيدة على كلا الجانبين وببساطة لا نعرف ما هى الرواية الصحيحة.

والروايات العربية تعتز بخالد باعتباره أكفأ القادة ، حتى بعد أن كان عمر بن الخطاب قد عزله من مركز القائد الأعلى الذى كان يشغله وعين أبا عبيدة بن الجراح بدلاً منه . فقد كان خالد هو الذى وحدَّ الجيوش الإسلامية عندما وصل ، وكان خالد هو الذى بدأ فتح دمشق بفتح الباب الشرقى، وكان خالد هو الذى وضع التكتيكات التى أدت إلى النصر فى معركة اليرموك . ثم واصل عمله ليقوم بدور بارز فى فتح حمص وقنسرين . وقد بقيت شهرته بوصفه قائداً عظيمًا عبر الأجيال وهناك شوارع تحمل اسمه فى جميع أنحاء العالم العربى. وعلى الرغم من إنجازاته التى لا يرقى إليها الشك ، فإن سمعته فى المصادر مختلطة. فقد جاء من واحدة من أرقى العائلات الأرستقراطية فى مكة وكان مثل الكثير من أبناء طبقته يراوده الكثير من الشك فى النبى محمد وما جاء به من الدعوة إلى العدالة الاجتماعية والتوحيد . ولم يكن واحداً من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام ؛ فالواقع أنه كان من بين أعداء النبى، وبالفعل حارب ضده فى غزوة أحُد ، ولكنه اعتنق الإسلام بعد ذلك بوقت قصير. وما إن أعلن إسلامه حتى صار مسلمًا مخلصًا وبدأ يكرس كل مواهبه العسكرية الهائلة لمساندة الدولة الإسلامية الجديدة. وبناء على أوامر النبى، دمَّر واحداً من أشهر الأصنام القديمة، تمثال الإلهة العزَّى فى نخلة بالقرب من مكة . وكان محل ثقة الخليفة أبى بكر الصديق الذى عهد إليه بقيادة الجيوش ضد القبائل العربية المتمردة فى حروب الردة . وقد أحرز انتصارات عظيمة ولكنه اشتهر أيضا بالقسوة وأحيانا بربود فعله المتسرعة جدا: ففى إحدى المناسبات ذبح مجموعة كاملة من المسلمين عن طريق الخطأ ، وربط بين هذا الاعتداء والزواج حالاً من أرملة أحد الضحايا(١٢). ويبدو أن شهرته قد زرعت الضغينة فى قلوب بعض المسلمين الأوائل فيما بعد ، ولاسيما الخليفة عمر بن الخطاب ، الذى كان يؤمن بقوة أن السبق فى الإسلام أمر جوهرى بالنسبة لمن يريد أن يكون قائداً ، واعتناق الإسلام فى وقت متأخر لايكفى، وأن قليلاً من التواضع لن يضيع سدى . وثمة

قصة تحكى عن خالد بن الوليد تحاول أن تفسّر حياته وأن ترد له اعتباره . ففى حوار مع القائد الأرمنى جرجة جورياه قبل معركة اليرموك مباشرة، يبدو خالد وهو يبرر حياته ويشرح لماذا كان يسمى «سيف الله» : «... قال: إن الله عزَّ وجلَّ بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعًا . ثم إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله . ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به ، فتابعناه . فقال : أنت سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين ودعا لى بالنصر ؛ فُسميت سيف الله بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين»(*).

كان خالد قد تلقى تعليمات من أبى بكر بأن يسرع بقدر ما يستطيع للمساعدة فى فتح الشام، وكانت أحداث الفتح قد وصلت آنذاك إلى حالة حرجة . وفى عيد الفصح (٢٤ أبريل ٦٣٤م) ظهر فجأة مع قواته وانقضوا على الغساسنة النصارى حلفاء البيزنطيين أثناء احتفالهم بين العشب والنضير وأزهار الربيع فى مراج الراحة شمال دمشق[١٣]. ثم اتجه جنوبيًا لينضم إلى القادة المسلمين الآخرين الذين كانوا يقاتلون فعلا فى الشام، ويبدو أنهم كانوا قد توحدوا تحت رايته لمواجهة تحدى القوات الإمبراطورية البيزنطية. وبدءوا بالهجوم على مدينة بصرى[١٤].

تقع بصرى شمال الحدود السورية - الأردنية الحديثة مباشرة فى أرض مسطحة ولكنها خصبية تتداخل مع كتل الصخور البازلتية السوداء لتشكل خصائص المنطقة. وشمال المدينة تبرز تلال حوران البركانية التى يمكن رؤيتها بوضوح من فوق أسوار المدينة. وعلى الرغم من أن الجبال جرداء، ومرتفعة بشكل لافت، فإنها تضم رقعًا من تربة غاية فى الخصوبة ، شأنها شأن كثير من المناطق البركانية. وكانت المنطقة الظهير الداخلى لبصرى كما كانت أقرب المناطق إلى شبه الجزيرة العربية، ومصدر إمدادات القمح والزيت والنبيذ الذى يريده البدو. وكانت المدينة قد صارت غنية لأنها كانت مستودعًا تجاريًا ، وشاع الاعتقاد على نطاق واسع بأن النبى نفسه كان قد زارها

* النص من الطبرى، ج٣ ، ص٣٩٨- ص٣٩٩ . (المترجم)

فى شبابه وأنه عرف أسرار الديانة المسيحية هناك على يد بحْيرا الراهب . وكانت بُصرى أيضا مركزًا سياسيًا . وعندما كان الإمبراطور الرومانى تراچان Tragian قد ضمَّ مملكة النبط فى سنة ١٠٦ م وحولها إلى الولاية العربية Arabia، نقل العاصمة من بترا البعيدة فى الجنوب إلى مدينة بُصرى التى يسهل الوصول إليها من روما . وإذ كانت المدينة مبنية من البازلت الأسود الصلب ، فإن أطلال مدينة بُصرى القديمة من أكثر الآثار جمالاً فى الشرق الأدنى. ولا يزال المسرح الرومانى الضخم هناك باقيًا كما هو تقريبًا ، ويشكل مركز قلعة بُنيت فى وقت لاحق فى العصور الوسطى. والأعمدة وأحجار الرصف تشير إلى الشوارع القديمة ، وهناك بقايا الحمامات وعدد من الكنائس المسيحية المهمة، ومن ضمنها كاتدرائية مستديرة فخمة .

وليس من الواضح ما إذا كان البيزنطيون قد أعادوا بناء السلطة الإمبراطورية بالمدينة عقب رحيل الساسانيين . ويبدو أن المدينة قد أبدت قدرًا بسيطًا من المقاومة ، وقرب نهاية شهر مايو سنة ٦٣٤م عقدت صلْحًا مع المسلمين، ووافق مواطنوها على دفع ضريبة سنوية وكانت أول مدينة كبرى فى بلاد الشام يستولى عليها الغزاة.

بعد استسلام بصرى ، سارت القوة الإسلامية غربًا لكى تتقابل مع عمرو بن العاص . وكان عمرو، بعد انتصاره فى داثِن يواجه قوة بيزنطية كبيرة كانت قد تجمعت جنوب غرب بيت المقدس على الطريق صوب غزة . وعبر خالد والآخرون وادى الأردن دونما مقاومة واضحة وقابل عمرو بن العاص ورجاله . ويقال إن الجيش الإسلامى المشترك كان حوالى عشرين ألفًا تحت قيادة عمرو، الذى كان القائد العربى الوحيد الذى ذكرته المصادر التى كانت تصوره على الدوام داهية ذكيًا . ويوصف بأنه يتجسس على معسكر العدو بشخصه أو يرسل الجواسيس للقيام بذلك، على حين يكتب القائد البيزنطى إليه باعتباره شخصًا يضاهيه فى الدهاء[١٥]. وتقابلت الجيوش فى مكان يسميه الكتاب المسلمون أجنادين ، وجرت هناك معركة كبرى. وليست لدينا معلومات تفصيلية عن طبيعة الصراع ولكن من الواضح أن الهزيمة كانت من نصيب البيزنطيين وأن شراذم جيشهم انسحبت إلى القدس وغيرها من المواقع الحصينة. وانتشرت أنباء الانتصار الإسلامى فى شتى الأنحاء، ويبدو أنها المعركة التى تشير إليها حولية فردجار Fredgar

الفرنجية التى تم تأليفها بعد حوالى عشرين سنة فى فرنسا. وهى تتضمن التفاصيل المثيرة ، وربما الحقيقية ، عن أن المسلمين عرضوا أن يبيعوا لهرقل المغانم والأسلاب التى كانوا قد استولوا عليها لتوهم من رجاله المهزومين ، ولكن الإمبراطور رفض أن يدفع فى مقابل أى شىء من هذه الغنائم[١٦].

ويخبرنا المؤرخ الأرمنى المعاصر سيبيوس كيف أن القوات البيزنطية تلقت أوامر من الإمبراطور بأن يبقوا فى حالة دفاع[١٧]. وبدلاً من ذلك ، تركوا معسكرهم بجوار النهر ليحتموا فى مدينة بيلا، على الضفة الشرقية للنهر . وكانت بيلا مدينة مزدهرة فى الأراضى الخصيبة بوادى الأردن وقلعة محصنة يسهل الدفاع عنها ترتفع فوق الشوارع الكلاسيكية ذات الأروقة على أرضية الوادى. وهناك تعرضوا للهجوم مرة أخرى. وكما هى العادة ، فإن مجرى المعركة ليس واضحًا تمامًا ولكن يبدو أن هناك بعض الملامح علقت فى الذاكرة . فقد عبرت القوات البيزنطية وادى الأردن من سكيثو بوليس Scythopolis على الضفة الغربية، ولكى يعطلوا المسلمين الذين يطاردونهم ، قطعوا بعض مصارف مياه الرى، بحيث جعلوا المياه تنساب على الأرض المسطحة فى قاع الوادى بحيث صارت محيطًا من الطين[١٨]. وشن المسلمون هجومهم وهم لايعرفون ما فعله البيزنطيون، وعلقت الكثير من خيولهم فى المستنقع ولكن الله أنقذهم . وفى النهاية كان البيزنطيون هم الذين وقعوا فى مصيدة الوحل وتم ذبح كثير منهم.

وانسحبت شراذم القوات البيزنطية آنذاك إلى دمشق . وطاردهم المسلمون. وصار حصار دمشق واحدة من المعارك المتلاحمة فى فتح الشام. ويمكن لنا إلى حد كبير أن نقتفى أثر تقدم الحصار بسبب الأوصاف التفصيلية التى أمدتنا بها المصادر وبسبب الحفاظ على نسيج المدينة. ذلك أن أسوار دمشق، سواء كانت رومانية فى أصلها أو أقدم من ذلك، وكان يتم تجديدها باستمرار ولا تزال متماسكة إلى درجة كبيرة . وفى الطرف الغربى فحسب من المدينة التى توسعت فى العصر العثمانى نجد الدائرة القديمة قد تصدعت . وجميع البوابات القديمة باقية باستثناء واحدة وهى اليوم تحمل الأسماء نفسها التى كانت تحملها فى المصادر العربية الباكرة.

إنها مثال مدهش على استمرارية الجغرافيا الحضرية والهندسة الحضرية طوال القرون الأربعة عشرة. وتخبرنا المصادر أن خالد بن الوليد قد تمركز عند الباب الشرقي، وعمرو بن العاص عند باب توما، وأبو عبيدة عند باب الجابية الذى أزيل الآن على الناحية الغربية ويزيد بن أبى سفيان عند الباب الصغير وباب كيْسان على الجانب الجنوبى مَن المدينة.

واتخذ المسلمون حيطتهم أيضا بأن وضعوا قوة على الطريق شمال دمشق. وقد برهن هذا على حكمة هذه الحركة ، لأن هرقل الذى قيل إنه كان فى حمص آنذاك ، أرسل قوة من الخيالة لكى تحاول التخفيف من وطأة الحصار ولكن تم اعتراضها ولم تصل أبدًا[١٩]. وليس من الواضح طول المدة التى استمر فيها الحصار. ومن الأمور المربكة أن المصادر العربية تقدم تقديرات تختلف اختلافا بيِّنا ، ما بين أربعة أشهر إلى أربعة عشر شهراً . ولايبدو أنه كان لدى العرب أى آلات حصار، أو أية تجهيزات أكثر تعقيداً من الحبال والسلالم ، وحتى السلالم كان لابد من استعارتها من الدير المجاور[٢٠]. ويبدو أن كل ما استطاع المهاجمون أن يفعلوه ضد الأسوار القوية للمدينة هو أن يضيقوا عليها الخناق على أمل أن المجاعة، أو الضجر ، أو المنازعات الداخلية سوف تتسبب فى استسلام المدافعين. وعندما صار من الواضح أنه لا توجد قوة إنقاذ فى الأفق ، بدأ اليأس يدب فى نفوس المدافعين عن دمشق . وحسبما تقول إحدى الروايات، جاءت النهاية عندما وُلد طفل للقائد البيزنطى المسئول عن المدينة وسمح لرجاله بالاسترخاء والأكل والشرب احتفالاً بهذه المناسبة . وقرر خالد بن الوليد، الذى كان يتصيد الفرص دائمًا والذى كان يعرف بالضبط ما كان يجرى فى المدينة، أن ينتهز الفرصة. وكان معه الحبال والسلالم . واقترب بعض رجاله من الباب مستخدمين جلود الحيوانات المنفوخة لعبور الخندق . وسحبوا حبالهم حول الشُرفات المفتوحة فى الأسوار وتسلقوا إلى أعلى ، وأخذوا الحبال معهم حتى لايراهم أحد. ثم ، وعند إشارة متفق عليها ، اقتحموا الباب وهم يُكبِّرون بصيحات «الله أكبر» ، وقتلوا حراس باب المدينة وكل من قاومهم .

وفى الوقت نفسه ، عند الطرف الآخر من المدينة، كان أهل دمشق قد فتحوا باب التفاوض من أجل الاستسلام صلحًا وبدأت القوات المسلمة تدخل المدينة من الغرب. وتقابلت المجموعتان ، خالد ورجاله من الشرق والآخرون من الغرب، فى وسط المدينة فى الأسواق القديمة، وبدأت المفاوضات. وتم وضع الشروط تاركين السكان آمنين فى مقابل الجزية. أما الممتلكات الخاصة للخزانة الإمبراطورية فقد تمت مصادرتها لصالح جميع المسلمين، وقد صارت جزءًا من الفيئ[٢١]. وكما جرت العادة تم تقسيم الغنائم وحرص القادة على الاحتفاظ بنصيب أولئك الذين كانوا متمركزين على الطريق شمال المدينة، فعلى الرغم من أنهم لم يلعبوا دورًا مباشرًا فى الحصار، فإن وجودهم أسهم فى النصر وحصلوا على نصيبهم من الغنائم . وربما تكون القصص المركبة التى تولدت على الاستيلاء على دمشق ، من ناحيتين مختلفتين وبطريقتين مختلفتين ، محاولة لحل الموضوع الشائك عما إذا كانت المدينة قد فُتحت صُلحًا أم عنوة . وفى هذه الحال يبدو أن السلطات قد حاولت الوصول إلى حل وسط لا يجعل فتح دمشق صلحًا أو عنوة.

كما تعكس روايات سقوط دمشق الولاءات المنقسمة بين سكانها. فقد كانت المدينة مركزًا من مراكز السلطة الإمبراطورية ولها حاكم عسكرى عينه الإمبراطور نفسه ، ولكن كثيرين من السكان إن لم يكن معظمهم كانوا من العرب المسيحيين . ومن الواضح أن الكثير منهم كانوا قد خلعوا ولاءهم للإمبراطورية البيزنطية وأنهم شعروا بأنهم أقرب إلى العرب خارج أسوار المدينة منهم إلى الروم والأرمن الذين كانوا يشكلون جزءًا كبيرًا من الحامية[*]. وأيًا ما كان التفسير ، فمن الواضح أن دمشق

(*) هناك سبب مهم يتجاهله المؤلف، ولا أظن أنه يجهله، وهو أن الصراع المذهبى بين المسيحيين الأرثوذكس، ومنهم مسيحيو دمشق بطبيعة الحال، والسلطات البيزنطية وكنيسة القسطنطينية من ناحية أخرى؛ قد تسبب فى أضرار شديدة وقعت على المسيحيين العرب فى دمشق وغيرها . وقد تمثلت هذه الأضرار فى الاضطهادات العنيفة ومصادرة الكنائس والأديرة المملوكة لأنصار مذهب الطبيعة الواحدة وممتلكاتهم لصالح أنصار مذهب الروم الأرثوذكس وكنيستهم . فقد حاولت كنيسة القسطنطينية فرض مذهبها بالقوة . وكانت نتيجة ذلك كراهية رعايا الإمبراطورية البيزنطية لحكومتها، ورأوا فيها وحشا لايستحق الإنقاذ. (المترجم)

نجت من أهوال القتال والنهب . وفى القرن الذى أعقب الفتح، صارت المدينة عاصمة العالم المسلم كله ودخلت عصرها الذهبى.

وفى وقت سقوط دمشق تقريبًا ، وكالعادة نجد ترتيب الحوادث هنا محل شك كبير ، توفى أبوبكر الصديق ، خليفة رسول الله وأول من تولى منصب الخلافة فى تاريخ المسلمين. ونعرف أن وفاته كانت فى يوليو سنة ٦٣٤ميلادية (جمادى الآخرة سنة ١٣ هجرية) . وما هو أقل وضوحًا هو أية مرحلة كانت تلك فى الفتوح ، ولكن هناك عددًا من الروايات عن أن أخبار الوفاة وصلت الجيوش الإسلامية فى بلاد الشام أثناء حصار دمشق. كان الخليفة الجديد هو عمر بن الخطاب الزاهد الصارم ، الذى تصوره الكثير من الروايات فى صورة العقل المدبر وراء حركة الفتوح . ولم تكن هناك معارضة لخلافته بين القوات فى بلاد الشام ولكن الخليفة الجديد كانت لديه أفكار واضحة عن القيادة . وكما رأينا ، لم يكن عمر يحب خالد بن الوليد وكان ساخطًا عليه. وحقيقة أن خالد بن الوليد كان قد حارب بهذا الشكل المبهر فى سبيل الإسلام ضد المرتدين فى شرق شبه الجزيرة العربية ثم فى العراق وبلاد الشام لم يكن لها تأثير فى تحسين وضع خالد أمام الخليفة الجديد. ففى ذلك الحين أمر بطريقة فظة بعزل خالد وعودته إلى المدينة. وفى إحدى الروايات أن أبا عبيدة بن الجراح الذى تولى مكان خالد قائدًا أعلى، تلقى أمرًا بأن يطلب من خالد أن يعترف بأنه كان كاذبًا . فإذا رفض، كما كان متوقعًا ، فيجب نزع عمامته ومصادرة نصف أمواله. وإذْ واجه القائد العظيم هذا الإنذار طلب مهلة للاستشارة ، ليس مع أحد الأصدقاء أو مع مؤيديه كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما مع أخته . وكانت واضحة تقرير فى أن عمر بن الخطاب يكره أخاها وأنه إذا ما اعترف بأنه كاذب سيتم عزله على كل حال . ولم يكن هناك ما يبرر أن يحاول استرضاء الخليفة بالاعتراف بجرائم لايعتقد أنه كان قد ارتكبها.

وفى انعكاس مثير لقوة الخليفة ووحدة المسلمين، أحس خالد أنه لابد من الذهاب إلى المدينة. ولو أن قائدا بيزنطيا كان فى الموقف نفسه لتصاعد الأمر إلى درجة التمرد والعصيان ولجأ إلى قواته لمساندته فى محاولة الوثوب إلى العرش. وعلى النقيض من هذا ، قبل القائد العظيم للجيش المسلم عزله وإهانته فى حلم وصبر . وعندما وصل

المدينة واصل عمر بن الخطاب تصرفاته الثأرية [ويقول الطبرى] «... كان عمر كلما مرَّ بخالد قال: يا خالد ، أخرج مال الله من تحت إستك ، فيقول : والله ما عندى من مال ؛ فلما أكثر عليه عمر قال له خالد : يا أمير المؤمنين ما قيمة ما أصبت فى سلطانكم ؟ أربعين ألف درهم ؟ فقال عمر : قد أخذت ذلك منك بأربعين ألف درهم ، قال : هو لك، قال : قد أخذته . ولم يكن لخالد مال إلاَّ عُدة ورقيق، فحسب ذلك ، فبلغت قيمته ثمانين ألف درهم فناصفه عمر ذلك ، فأعطاه أربعين ألف درهم ، وأخذ المال . فقيل له : يا أمير المؤمنين ، لو رددت على خالد ماله . فقال : إنما أنا تاجر للمسلمين، والله لا أرده عليه أبداً . فكان عمر يرى أنه اشتفى من خالد حين صنع به ذلك»(*). وسرعان ما عاد خالد بن الوليد إلى بلاد الشام ، ليلعب دوراً رئيسياً فى معركة اليرموك وما أعقبها من فتوح حمص وقنسرين ، حيث استقر هناك نهائيًا . وقيل إن عمر فى النهاية اعترف بأنه آذى «سيف الله»، وأن أبابكر الصديق، الذى أزر خالد وسانده كان أفضل من عمر بن الخطاب فى الحكم على الرجال[٢٢]. ومات القائد العظيم فى سلام سنة ٦٤٢م (سنة ٢١ هجرية) ، وكان قائدا عسكريا لامعًا ، قاسيًا ، ولكنه كان قائدا لم يكن المسلمون الأكثر تدينًا يستطيعون أن يشعروا بالراحة معه .

وفى الوقت نفسه ، كان الإمبراطور هرقل يجهز للقيام بجهد كبير آخر لطرد المسلمين من بلاد الشام. إذ كان قد تقهقر بعد سقوط دمشق إلى أنطاكية شمال بلاد الشام، وكانت العاصمة التقليدية للمنطقة بأسرها . وهناك انطلق فى توجيه آخر حملاته العسكرية . وجمع البيزنطيون كل ما استطاعوا جمعه من قوات . وتعطينا المصادر العربية أرقامًا كبيرة للغاية، فوق مائة ألف[٢٣]، بيد أن المقارنات مع الجيوش البيزنطية الأخرى فى تلك الفترة تجعل من الواضح أن هناك مبالغة كبيرة ، فالأعداد التى تتراوح ما بين خمسة عشر وعشرين ألفا تبدو ممكنه أكثر. وضمت الجيوش مجموعات متنافرة للغاية من الرجال. كان هناك الروم البيزنطيون تحت قيادة تيودور تريثوريوس Theodore Trithurios ، وفيلق كبير من الأرمن تحت قيادة جرجه والعرب المسيحيون

(*) النص من الطبرى، ج٣ ، ص٤٢٧ . (المترجم)

المحليون يقودهم ملك الغساسنة، الحليف التقليدى للبيزنطيين، جبلة بن الأيهم. وكان القائد الأعلى أرمنيا يُدعى ڤاهان Vahan . وكانت الفرق المختلفة تتكلم بالضرورة لغات مختلفة – اليونانية ، والأرمنية والعربية – وربما كانت هناك صعوبة فى الاتصالات فيما بينهم . وكانت هناك أيضا اختلافات دينية وثقافية عميقة. فلا بد أن الأرمن والروم قد جاءوا من خلفيات مستقرة، ربما كانت القرى الريفية ، وكانوا معتادين على الحياة والقتال فى الأراضى المرتفعة والجبلية ،، أما العرب، من ناحية أخرى ، فكانوا من البدو الذين اعتادوا تقاليد الترحال والحركة فى حروب الصحراء. وقد جاءت جميع القوات من خلفيات مسيحية، ولكن كلاً من الأرمن والعرب المسيحيين كانوا يُعتبرون هراقطة فى نظر البيزنطيين الأرثوذكس. وليس من الواضح إلى أى مدى أثرت هذه الانقسامات حقًا على أداء الجيش البيزنطى، ولكن المصادر غاصة بأخبار شتى عن الاستياء والسخط ، وعن اعتناق جرجه Jurjah الإسلام على يدى خالد بن الوليد عشية المعركة وانضمام المسيحيين العرب إلى الجانب المسلم أثناء سير المعركة. وتتحدث المصادر العربية أيضا عن الجنود البيزنطيين الذين كانوا مربوطين بالسلاسل معًا حتى لايمكنهم الفرار، ولكن هذه قصة نجدها فى روايات كثيرة عن الفتوح، استخدمت للمقابلة بين المسلمين الأحرار فى دوافعهم والجنود الأعداء الذين يحبون أنفسهم : وليس هناك دليل حقيقى على مثل هذه الفكرة غير العملية وعن تطبيقها ، على الرغم من أنها يمكن أن تكون انعكاسًا بعيدًا لممارسة استخدام دروع المشاة وإقفالها سويًا لإقامة حائط حماية(٢٤).

ومن المحتمل أن تكون القوات البيزنطية قد اجتمعت فى حمص وسارت جنوبًا عبر وادى البقاع، ومرت ببعلبك بمعابدها الوثنية الكبيرة – التى كادت أن تكون فى ذلك الحين خاوية من المتعبدين ولكنها كانت لا تزال عظيمة رغم تدهورها – ومن هناك إلى دمشق . ويبدو أن توقعوا احتلالها دون مقاومة. وليست لدينا معلومات عن الكيفية التى وجدوا بها المدينة ولكن هناك روايات عن التوتر بين القادة البيزنطيين الذين كانوا يطلبون المؤن والإمدادات لرجالهم، حسبما كانت ممارسات البيزنطيين المعتادة، والمسئول المالى المحلى، منصور العربى، الذى أصر على أن المدينة لا تملك ما يكفى من

الموارد لإطعامهم . ومن المؤكد أن الجيش لم يستخدم دمشق قاعدة له وإنما واصل مسيره صوب الجنوب.

وتجمع الجيش البيزنطى عند الجابية فى مرتفعات الجولان. وكان هذا وقت الرعى الصيفى التقليدى للغساسنة. ووفقا لأقرب الروايات إلى الاحتمال ، كان ذلك الوقت شهر أغسطس ٦٣٦م، وكانت الجولان توفر الكثير من الطعام المطلوب، والماء والمرعى للجيش. وفى الوقت نفسه استعدت القوات المسلمة لمواجهة البيزنطيين والاحتفاظ بمكاسبها التى جنتها منذ وقت قريب. وتجمع جيشهم أيضا فى منطقة الجولان ، إلى الشمال الشرقى من البيزنطيين. وكانت مختلف الجيوش الإسلامية قد تجمعت فى ذلك الحين تحت قيادة أبى عبيدة بن الجراح ، وربما تحت قيادة خالد بن الوليد . وكان كل من يزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص يقود فرقة من الجيش . ووفقا للمصادر الإسلامية كان عدد الجيش الإسلامى أربعة عشر ألف مقاتل . وفى ضوء ما تم من مراجعة هبطت بالأرقام على الجانب البيزنطى، فمن الممكن ألا تكون أعداد الجيشين متفاوتة بدرجة كبيرة.

وتعرف المعركة التى نشبت بين المسيحيين والمسلمين عادة باسم معركة اليرموك ,وكان تاريخها المتفق عليه صيف سنة ٦٣٦ م[٢٥] (١٣هـ). ومعركة اليرموك ، ومعركة القادسية فى العراق، واحدة من المعارك الرئيسية التى صارت ترمز إلى الانتصارات الإسلامية فى منطقة الهلال الخصيب. وكما هو الحال فى القادسية فإن الروايات العربية كثيرة ومشوشة ومن الصعب أن تكون واضحة بشأن ما حدث بالضبط . فليست هناك رواية معاصرة أو يمكن الاعتماد عليها من وجهة النظر البيزنطية. وتقول المصادر الإسلامية إن كلاً من الجانبين كانت تلهمه الحماسة الدينية. وبينما بقى البيزنطيون فى معسكرهم الحصين، يستعدون للمعركة ، « ... فلزموا خندقهم عامة شهر يحضضهم القسيسون والشمامسة والرهبان وينعون لهم النصرانية[٢٦](*) وعلى الجانب

(*) النص من الطبرى، ج٣ ، ص٥٩٥ . (المترجم)

الآخر خاطب بن الوليد رجاله قائلا : «... إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى. أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ؛ ولاتقاتلوا قومًا على نظام وتعبية ، على تساند وانتشار، فإن هذا لا يحلُّ ولا ينبغى»[٢٧](*).

ونهر اليرموك ، وهو مجرى مائى دائم، يفيض من هضبة حوران إلى وادى الأردن، إلى الجنوب مباشرة من بحر الجليل. وفى مجراه إلى داخل الوادى الصخرى ، حفر ممرًا منحدرًا ، تحفّ به من الجانبين منحدرات صخرية شاهقة . وعلى الجانب الشمالى يلحق به عدد من الوديان الصغيرة، هى وادى الرّقاد . وكانت هذه المنحدرات هى التى حددت مجرى المعركة وربما كانت كارثية على المهزومين عندما حاولوا الهرب من ساحة المعركة . والموقع الفعلى للمعركة ، بين ممر اليرموك فى الجنوب ومرتفعات الجولان فى الشمال ، أرض ذات تلال صخرية منحدرة تتخللها وتُرصّعها القرى والمزارع . والحقيقة أنها كانت بلادًا جيدة مفتوحة تصلح لمناورات الفرسان، ولكنها أيضا كانت غطاء من الصخور أو الأشجار يختبئ فيها الرجال أو يعدوا الأكمنة . ومنذ سنة ١٩٤٨م صار هذا الموضع مثار حساسية بالغة من الناحية السياسية؛ لأنه يقع فيما بين حدود سوريا (فى الشمال من النهر) والأردن (جنوب النهر) والجولان المحتلة. وهذا ما جعل الوصول إلى ميدان المعركة أمرًا بالغ الصعوبة بالنسبة للمؤرخين . وعلى أية حال، فإن الأمر لم يكن على هذا النحو دائمًا . فقبل الحرب العالمية الأولى، عندما كانت المنطقة كلها جزءًا من الإمبراطورية العثمانية ، زار المنطقة المؤرخ والمستشرق الإيطالى الكبير ليونى كايتانى Leone Caetani أمير سرمونيتا Sermoneta . وقد استغل ملاحظاته التى عاينها بنفسه ومعرفته بالمصادر العربية فى إنتاج سياق جغرافى للمعركة ، وهو الذى شكل أساس أكثر الروايات الحديثة قبولاً[٢٨].

كانت معركة اليرموك سلسلة من الصراعات التى ربما تكون قد استمرت على مدى أكثر من شهر ثم تصاعدت إلى معركة كبرى قرب نهاية أغسطس[٢٩]. وقد حدثت المواجهات الأولى فى إقليم الجابية، وبعدها تقهقر المسلمون تجاه درعه . وأعقبت ذلك

(*) الطبرى ، ج٣، ص٣٩٥ .

فترة انتظار ومناوشات عندما جهز البيزنطيون جيشهم وحاولوا بذر الشقاق فى صفوف المسلمين. ويبدو أن القتال الفعلى بدأ عندما تظاهر المسلمون بأنهم ينسحبون من مواقعهم وأغروا عناصر من الجيش البيزنطى لتتبعهم إلى أرض وعرة ، حيث كان هناك كمين فى انتظارهم . وفى أثناء الهجوم المضاد الذى شنه المسلمون ، صار الفرسان البيزنطيون منفصلين عن المشاة، مما ساعد الفرسان المسلمين على أن يوقعوا خسائر فادحة فى صفوف المشاة على حين كان الفرسان البيزنطيون يشقون طريقهم عبر الصفوف الإسلامية[٣٠] ويقال إن خالد نظم فرسان المسلمين فى نظام قتال لم يستخدمه العرب من قبل ؛ فقد قسّم الفرسان إلى «كراديس» ، عدد كل منها يتراوح ما بين ٣٦ و ٤٠ فارسًا ، بحيث يبدو كأنهم أكثر عددًا فى عيون العدو[٣٣]. وربما لم يكن البيزنطيون أيضا غير مستقرين بسبب عاصفة ترابية هبت عليهم. وعندئذ كانت القوة البيزنطية الأساسية قد سيقت نحو الغرب وترددت فيما بين الأودية القاحلة فى وادى الرُقاد ووادى العلاّن ، مع الحواف الصخرية الشاهقة لمر اليرموك خلفهم. وتم القضاء على أية محاولة للتقهقر غربًا عندما عبر خالد بن الوليد القنطرة الرومانية القديمة فوق وادى الرقاد، ومضت قوات المسلمين لكى تعصف بمعسكر البيزنطيين عند الياقوصة على الطريق إلى بحر الجليل. وبينما كان العدو يضغط على البيزنطيين زاد تدهور معنويات القوات البيزنطية من جراء الشائعات بأن المسيحيين قد استسلموا للمسلمين . وانهارت معنويات القوات البيزنطية وتفككت صفوفها تمامًا . وهناك روايات عن الجنود المرهقين المكتئبين ، وقد التفوا فى عباءاتهم، يتحسرون على حقيقة أنهم لم يكونوا قادرين على الدفاع عن المسيحيين وأنهم ينتظرون الموت[٣٢]. وسيق الآخرون أسفل المنحدرات الصخرية إلى الوديان. ولم يأخذ المسلمون سوى عدد قليل جدًا من الأسرى.

كانت هزيمة اليرموك كارثة على البيزنطيين وانتشرت أخبارها فى شتى الأرجاء. ففى فرنسا البعيدة، سجل كاتب مؤرخة فردجار الحادثة بعد عشرين سنة من الهزيمة المرعبة كما وصفها . وكتب أن الجيش الإسلامى كان عدده مائتى ألف مقاتل. وحسب روايته ، أنه فى الليلة السابقة على المعركة «ابتلى جيش هرقل بجيش الرب: فقد مات اثنان وخمسون ألفًا من رجاله أثناء نومهم». ولا غرابة فى أن الناجين قد خارت قواهم

بشكل خطير. «وعندما شاهد رجاله ، فى اليوم التالى، عندما بدأت المعركة ، أن قسماً كبيراً جداً من قواتهم سقطت بحكم الرب، لم يجرؤوا بعدها على التقدم صوب المسلمين ولكنهم تراجعوا حيثما رأووهم قادمين»[٣٣]. وقرب نهاية القرن السابع، تذكر الزاهد سان أنستاسيوس السيناوى ، St. Anastasius of Sinai ، فى ديره النائى المنعزل الهزيمة باعتبارها «أول هزيمة للجيش الرومانى مخيفة ولاسبيل إلى إصلاح آثارها»[٣٤].

وفى أعقاب النصر، استمر المسلمون فى إخضاع مدن بلاد الشام. فقد قامت قوة من الجيش المسلم بقيادة أبى عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، بالتوجه شمالاً من دمشق إلى حمص التى كانت مدينة مهمة فى العصور الرومانية المتأخرة[٣٥]. وحاصروا المدينة طوال الشتاء (ربما سنة ٦٣٦-٦٣٧م) على الرغم من البرد القارص وخروج الحامية البيزنطية لشن الهجمات . فقد كان المدافعون على قناعة بأن البرد سوف يُجبر العرب، الذين لايلبسون سوى النعال، على رفع الحصار، على الرغم من أنه عندما جاء الربيع وكانوا لا يزالون فى مكانهم ارتفعت الأصوات فى المدينة تحث على الصلح والمفاوضات . ووفقًا لرواية أخرى، جاءت المساعدة للمسلمين عندما تعرضت أسوار المدينة لضرر بالغ من جراء أحد الزلازل ، وهى علامة أكيدة على أن الله كان بجانبهم . وفى نهاية الأمر عقد الجانبان الصلح . وكما هى العادة ، اضطر السكان إلى دفع الجزية إلى المسلمين، وكان بعضها بقدر ثابت ، على حين كانت الضرائب الأخرى بنسب تتغير وفقًا لدرجة رخائهم فى ذلك الحين. وكان ضمان حياتهم ، وممتلكاتهم ، وأسوار المدينة وكنائسهم وطواحينهم وسواقيهم على المسلمين فيما عدا كنيسة يوحنا، التى كان يجب أن تتحول إلى مسجد[٣٦]. وفى الوقت نفسه تخبرنا رواية بأنهم قد تصالحوا على أن تكون نصف دورهم للفاتحين . ويقال إن قائد الغزو الإسلامى للمدينة قد قسَّمها بين السكان والمسلمين بحيث يحتلوها . كما أسكنهم أيضا فى كل مكان أخلاه شاغلوه وفى كل حديقة مهجورة[٣٧]. كانت حمص مدينة مهمة على أطراف بادية الشام وربما كانت هناك فكرة بأن مكانها هو المكان المناسب لاستقرار البدو. ومن المحتمل أن المدينة كانت أول مدينة فى بلاد الشام بها عدد كبير من السكان .

والفقرة الخاصة بتسليم ربع كنيسة يوحنا لكى تستخدم مسجداً قد تبدو غريبة وربما غير ممكنة: فعلى كل حال كيف كان لهاتين الديانتين ، اللتين كان أتباعهما لتوهّم مشتبكين فى حرب عنيفة، أن ينتهى بهما الأمر إلى مقاسمة المبنى الدينى الرئيسى فى المدينة؟ وعلى أية حال ، لدينا رواية أن هذا حدث أيضا فى دمشق، حيث استخدم المسلمون نصف مساحة مبنى الكاتدرائية لتكون أول مساجدهم . ولم يحدث سوى مع بداية القرن الثامن ، أى بعد مرور ستين سنة على الفتح، أن تم إخراج المسيحيين وبناء مسجد فى المدينة. وحتى فى ذلك الحين دفعت التعويضات وبنى المسيحيون كاتدرائية جديدة فى كنيسة مريم، على مسافة حوالى نصف كيلو متر شرق المسجد، وبقيت هذه كاتدرائية الملكانيين (الروم الأرثوذكس) فى دمشق حتى اليوم. ومن المثير، أننا نجد تأكيداً أثرياً عن هذه الممارسة فى مدينة صغيرة بالنجف، Sabeita. فهنا توجد كنيستان بيزنطيتان كبيرتان. وفى الرواق بإحدى الكنيستين نجد أساس مسجد صغير. ويمكننا أن نقول إنه مسجد بسبب المحراب الواضح للعيان . وكل هذا الدليل يوحى بأنه، بعد الهزيمة السياسية للقوات المسيحية، تعايشت الجماعات الدينية (المسلمون والنصارى) معًا ، على أساس من التسامح المتبادل، إن لم يكن فى حال من الانسجام والتوافق .

وكانت المدينة التالية على الطريق مدينة قنسرين[٣٨]. وبينما لا تزال حمص واحدة من أهم المدن فى سوريا ، فإن قنسرين قد اختفت فعلاً من الخرائط . ولم يحدث سوى فى وقت قريب أن كشفت عمليات المسح والتنقيب فى قرية صغيرة إلى الشرق مباشرة من طريق دمشق – حلب عن الموقع القديم. وتقع قنسرين (خالكيس Chalkis عند الروم) فى وسط سهل خصيب تزرع فيه الغلال؛ وعلى الرغم من أنها كانت مركزاً إدارياً مهمًا، فإنها لم تكن أبداً مدينة كبيرة. ويمكن تمييز قلعة المدينة القديمة ، كما يمكن التعرف على المدينة الإسلامية الباكرة، التى تقع خارج حدود المدينة الكلاسيكية : فقد استقر العرب خارج الأسوار فيما صار بالفعل ضاحية جديدة، داخل المدينة نفسها . وبعد سقوط المدينة قرر خالد بن الوليد أن يتخذها سكنًا وموطنا ولحقت به هناك زوجته .

وربما عرف المسلمون فى ذلك الوقت تقريبا جانبًا غير مرغوب بالمرة من جوانب الحياة ببلاد الشام فى ذلك الزمان، أى الوباء. ومن بين الضحايا كان القائد الأعلى للقوات المسلمة ، أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبى سفيان ، الذى ورث مركزه أخوه معاوية، الذى صار فيما بعد أول خليفة أموى(٣٩).

ويبدو أن هرقل قد تحرك من أنطاكية بعد معركة اليرموك واستقر فى الرها ، حيث حاول تنظيم الدفاع عن شمال بلاد ما بين النهرين، وجنوب شرق الأناضول. ثم انتقل على طول أعالى الفرات قبل أن يتجه غربيًا ، قاصدًا القسطنطينية ، عاصمته التى لم يكن قد زارها طوال السنوات العشر الأخيرة . وليس هناك دليل، كما اقترح البعض، على أنه كان عاجزًا بفعل الشيخوخة، أو الإحباط، وإنما لا بد أنه كان متعبًا ومدركًا بشكل مؤلم لمدى الهزيمة التى لحقت ببيزنطة. ويضع الكُتاب العرب عددًا من الكلمات الحزينة وكلمات الوداع على لسانه وقد شاعت قصة وداع هرقل لسوريا . وفى إحدى هذه الروايات نُسب إليه أنه قال «عليك السلام يا سورية، سلامًا لا اجتماع بعده، ولايعود إليك رومى أبدًا إلا خائفًا، حتى يولد المولود المشئوم ، ويا ليته لا يولد. ما أحلى فعله ، وأمرَّ عاقبته على الروم»(٤٠)(*). وهناك رواية أخرى تقول إنه وهو يعبر من خلال الممرات فى جبال طوروس ، ونظر خلفه قائلا «عليك السلام يا سورية» وتحسر على ضياع سوريا الغنية بيد أعدائه(٤١). وعندما انسحب أخذ معه جميع الحاميات فى النواحى على امتداد الحدود الجديدة ، ليخلق نوعًا من الأرض المحايدة بين المناطق البيزنطية والمناطق الإسلامية فى الركن الشمالى الشرقى من البحر المتوسط(٤٢). وثمة مصدر سوريانى لاحق، معاد تمامًا لكل ما هو بيزنطى، يقول إن هرقل «أصدر الأوامر لقواته بنهب اقرى والمدن وتخريبها ، كما لو كانت الأرض مملوكة للعدو بالفعل. وسرق البيزنطيون ونهبوا كل ما وجدوه ، ودمروا البلاد أكثر من العرب»(٤٣).

ومع رحيل الإمبراطور، تركت المدن البيزنطية الباقية لتواجه مصيرها . فلم تبذل أنطاكية، عاصمة سوريا القديمة ، سوى القليل من المقاومة ويبدو أن السكان الباقين لم

(*) الطبرى، ج٣ ، ص٦٠٣ .

يبذلوا أى جهد لاستغلال الأسوار الضخمة التى كان الإمبراطور جستنيان Justinian قد بناها حول مدينتهم منذ أقل من مائة سنة قبل ذلك لإبقاء المهاجمين خارج المدينة: ومن المحتمل أنه لم يكن يوجد سوى عدد قليل جداً منهم للدفاع عن هذه الدائرة الضخمة. ويقال إنهم تمردوا ضد الحكم الإسلامى فيما بعد، ولكن هذا قد يعنى فحسب أنهم رفضوا دفع الضرائب أو عجزوا عن دفعها وتم إرغامهم على دفعها. وفى مدن صغيرة أخرى، كان الاستسلام للجيوش الإسلامية يتخذ شكل الكرنفال تقريباً . ففى مدينة شيزر الصغيرة على ضفاف نهر العاصى وسط بلاد الشام خرج السكان لمقابلة المسلمين ومعهم الطبول والصنوج كما جرت العادة عند استقبال الزوار المهمين(٤٤). وحدث الشىء نفسه فى معرة النعمان وأفاميا Apamea التى كانت ذات مرة العاصمة الفخورة لولاية سوريا الثانية فى الإمبراطورية الرومانية، ولكنها كانت آنذاك تعانى اضمحلالاً شديداً بعد أن نهبها الجيش الفارسى بوحشية قبل ستين سنة، أى فى سنة ٥٧٣م . ولم يكن الأمر دائماً بمثل هذه السهولة : فعندما خرج أهل درعا(٤٥) فى جنوب بلاد الشام لتحية الخليفة عمر بن الخطاب بالطبول والغناء وهم يحملون السيوف وحزم نبات الآس العطرى، أمر الخليفة الزاهد بأن يوقفوا عن فعل هذا . وشرح قائده أبوعبيدة بن الجراح الذى كان قد اعتاد آنذاك عادات المدن الصغيرة فى بلاد الشام ، أن هذه عاداتهم وأنه لو منعهم من القيام بها، لظنوا أنه ينقض الصلح الذى عقده المسلمون معهم. وبشىء من التردد سمح لهم الخليفة الصارم بالاستمرار .

كانت أقوى مقاومة واجهها المسلمون فى مدن الساحل الشامى والفلسطينى. وكانت هذه على الدوام المناطق التى كانت فيها الحضارة اليونانية أكثر رسوخاً وجذورها أكثر تغلغلاً . وكان السبب أيضا وراء ذلك أن البيزنطيين كانوا قادرين على إعادة تموين وإعادة تعزيز هذه المدن عن طريق البحر . وكانت قوات كثيرة من القوات البيزنطية فى فلسطين قد انسحبت إلى مصر، ولكن قيصرية وغزة كانتا لا تزالان صامدتين . وكانت غزة مسرح المواجهة الأولى بين عمرو بن العاص والبيزنطيين عند البداية الأولى للفتح ، ويبدو أنه عاد للمدينة آنذاك ونجح فى أخذها وكان طبيعيا من ذلك الموقع أن تتجه أفكار عمرو بن العاص إلى مصر التى كانت تربطها بغزة روابط وثيقة.

وإلى أعلى الساحل باتجاه الشمال كانت أقوى مقاومة فى مدينة قيصرية. وبينما كانت غزة مأهولة بالسكان وعامرة باستمرار بحيث لم يبق سوى القدر الضئيل من آثار ماضيها الكلاسيكى، كانت قيصرية مهجورة إلى حد كبير، كما أن حدود المدينة القديمة التى أسسها هيرود الكبير Herod The Great (٧٣- ٤ ق.م) لتكون نافذة على عالم البحر المتوسط، واضحة للعيان . وبقيت المدينة مزدهرة فى القرن السادس الميلادى، مع أحياء سكنية جديدة بنيت فيما بين الآثار العظيمة التى خلفتها الفترة الكلاسيكية، وأسفل الميناء توجد كنيسة مثمنة الاضلاع تطل على أحواض السفن والأرصفة. ويبدو أن المدينة صمدت بعض السنين ، ربما حتى سنة ٦٤١م أى بعد خمس سنوات من هزيمة القوات البيزنطية فى معركة اليرموك ، وعرفنا أنها لم تسقط إلا بعد أن دَل سكانها اليهود المسلمين على كيفية دخولها من خلال قناة مغطاة. ويقال إن الرجل الذى قاد جيش الفتح كان هو معاوية بن أبى سفيان. وإذا كان الأمر كذلك ، فإن هذا كان أول نصر عسكرى للرجل الذى قُيِّض له أن يحكم العالم الإسلامى بأسره من قاعدته فى دمشق . ولأن السكان كانوا قد قاوموا على مدى فترة طويلة وأخذت المدينة عنوة تم استرقاق عدد كبير منهم وأخذوا إلى الحجاز، حيث عملوا «فى الكتابة والأعمال للمسلمين»[٤٦]. وربما نرى هنا بدايات أخذ المسلمين من الثقافة اليونانية، وهو أمر من أوضح خصائص الفترة الإسلامية الباكرة.

وفى اللاذقية ، أكبر موانئ سوريا الحديثة ، أغلق السكان البوابة الكبرى لأسوار مدينتهم فى وجه الغزاة ويقال إن العرب بذلوا جهداً عظيما وحفروا الخنادق عميقة بحيث تغطى رجلاً راكبًا فرسه . ثم تظاهروا بالتراجع صوب حمص . وعندما هبط الليل عادوا إلى أماكن اختبائهم وفى الصباح فتح السكان البوابة لإخراج قطعان ماشيتهم للرعى؛ ومن الواضح أن هذه كانت مدينة زراعية تماماً . وبرز العرب فجأة من أماكن اختبائهم واقتحموا البوابة، ووضعوا أياديهم على المدينة . وهنا تم السماح للسكان بالاحتفاظ بكنيستهم وبنى المسلمون مسجداً جديداً لأنفسهم[٤٧]. أما مدن لبنان ، بيروت ، وصور وصيدا فلم تبد أية مقاومة . وفى طرابلس فقط صمد البيزنطيون فترة

طويلة ، ولأن المدينة كانت تتلقى إمدادات عن طريق البحر ، فقد استمر الدفاع عنها حتى بداية عهد الخليفة عثمان بن عفان فى سنة ٦٤٤م. وبنى المسلمون حصنًا صغيرًا خارج الأسوار لكى يراقبوا السكان وأخيرًا استيقظوا ذات يوم ليجدوا المدافعين جميعًا قد تم إخلاؤهم تحت جنح الليل بواسطة السفن البيزنطية[٤٨]. وكان سقوطها يعنى النهاية الأخيرة للسيطرة البيزنطية على أى جزء من الساحل الشرقى للبحر المتوسط.

وكانت هناك مدينة واحدة كان فتحها رمزيًا أكثر منه ذا أهمية عسكرية، وهى مدينة بيت المقدس. وللمدينة أهمية عظمى بالنسبة للمسلمين، باعتبارها أولى القبلتين وارتبطت بقصة الإسراء التى تفتحت فيها أسرار السماء أمام النبى محمد . وكانت بيت المقدس عند نهاية القرن السادس الميلادى مركزًا للحج المسيحى والإدارة الكنسية. وكانت الأسوار تضم مساحة تضاهى مساحة القدس العتيقة اليوم تقريبًا . ولدينا نظرة فاحصة غير عادية على مظهر مساحة المدينة بسبب وثيقة تعرف باسم خارطة مدبه Madaba[٤٩]. وهى خريطة من الفسيفساء للأرض المقدسة تم صبُّها على أرضية كنيسة فى بلدة أردنية صغيرة هى مدبه ، ربما فى نهاية القرن السادس . وتبدو مدينة القدس شاخصة بوضوح فى هذه الخريطة. ويمكن أن نرى الشوارع الكلاسيكية التى تحف بها الأعمدة ، والتى هى نفسها شوارع المدينة الرئيسية اليوم كما يمكننا أن نرى الأسوار والأبراج وكنيسة الضريح المقدس الكبرى، مع بيان المكان الذى صُلب فيه المسيح ، ودُفن ، ثم قام مرة أخرى. ويمكن أن نرى أيضًا الكنيسة الجديدة الكبيرة Nea ، التى بناها الإمبراطور جستنيان فى سياق حملته لتجميل المدينة. وقد كشفت الحفائر منذ سنة ١٩٦٧م عن أسس الكنيسة والشارع الجديد الذى كان يؤدى إليها ، مما يؤكد دقة الخارطة . وهناك منطقة واحدة فى المدينة لم تخبرنا الخارطة عنها، منطقة جبل المعبد. وهذه ساحة واسعة حيث كان يقوم معبد هيرود وربما كانت خالية منذ دمر الرومان المعبد سنة ٧٠م. وبعد الفتح الإسلامى بستين سنة قام الخليفة الأموى عبد الملك

ببناء قبة الصخرة في الموضع(*)، وتعتبر قبة الصخرة ثالث الأماكن المقدسة بعد مكة والمدينة بالنسبة للمسلمين السنة . وسيكون من المذهل أن نعرف ماذا وجد عمر بن الخطاب في الموقع، إذا كان قد وجد شيئا على الإطلاق، ولكن من الأمور المضنية المعذبة، أن الفسيفساء قد تحطمت في الموضع الذي كان يجب أن يوجد فيه المعبد ولو أن صدفة البقاء كانت قد حفظت لنا عدة سنتيميترات أخرى من الفسيفساء ، لربما وجدنا الإجابة عن هذا السؤال(**).

كان الرجل المسئول عن بيت المقدس قد تولى منصب البطريرك منذ وقت قصير، وهو البطريرك صفرونيوس. وكان رجل كنيسة يونانيًا ، متعلمًا وذكيًا ، ويحتقر البدو الأجلاف . وبالنسبة لصفرونيوس ، كان ظهور العرب علامة على غضب الرب بسبب خطايا النصارى. وفي موعظة نارية وبخهم بقوله «من أين حدثت الحروب ضدكم ؟ من أين تعددت غزوات البرابرة؟ من أين صعد المسلمون في مواجهتكم ؟ ممن يتزايد بهذا القدر الكبير من الدمار والنهب؟ من أين تأتي إراقة الدماء الإنسانية التي لاتتوقف ؟ ما سبب أن طيور السماوات تلتهم الأجساد البشرية ؟ ما سبب أن الصليب محل سخرية ؟ وما سبب أن المسيح نفسه ، مانح كل خير ومصدر النور لنا ، تجدف بحقه الأفواه البربرية ؟ » واستمر يقول : « لقد ظهر المسلمون بشكل غير متوقع ضدنا بسبب خطايانا ونهبوا كل شيء بالقوة وبوحشية وبجسارة لاتعرف الدين ولاتعرف الرب»(٥٠). هذا هو الصوت الحقيقي للثقافة الإغريقية ، وقد أثار الفتح الإسلامي لبلاد الشام رعبه وفزعه .

(*) ليس هناك أي دليل أثري ، أو غير أثري، على أن المعبد كان قائمًا في مكان قبة الصخرة وليس مفهومًا الربط بين الهيكل الذي بناه هيرود والذي هدمه الرومان، وبين مكان قبة الصخرة ؛ إذ إن كل السوابق الإسلامية (التي ذكرها المؤلف في الصفحات السابقة) تؤكد احترام أماكن عبادة الآخرين بالإبقاء عليها أو تعويض السكان عنها، فلماذا يشذ المسلمون عن هذا السلوك مع معبد اليهود؟ والراجح أنه لم يكن موجودًا! سواء كان كاملاً أو في صورة خرائب وأطلال. (المترجم)

(**) هناك تهافت أوضح من هذه العبارات التي تؤكد أن المؤلف يروج لأفكار غير صحيحة - على الرغم من جديته الواضحة - في سياق غير سياقها. (المترجم)

وعلى الرغم من احتقاره ونفوره من العرب، فقد كانت الظروف العسكرية تعنى أن صفرونيوس ليس أمامه بديل سوى التفاوض معهم . وعلى أية حال، فإنه أصرَّ على أنه سوف يسلم المدينة فحسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب نفسه . وصار تسليم بيت المقدس موضوعًا للتاريخ والأسطورة ، ومصدرًا للأمثلة لكل من يريدون مناقشة بعض النقاط حول العلاقات الإسلامية - المسيحية.

فقد لاحت الفرصة عندما زار عمر بلاد الشام . وكما هى عادة المصادر العربية هناك قدر كبير من الارتباك حول وقت قيامه بهذه الزيارة، وحول ما إذا كانت زيارة واحدة أم عدة زيارات[٥١]. والسيناريو الأرجح من غيره هو أن الخليفة جاء إلى الجابية فى سنة ٦٣٧م أو سنة ٦٣٨م وفى أثناء إقامته هناك ، يعالج عددًا كبيرًا من المسائل الإدارية، جاء وفد من المدينة لوضع الشروط للصلح . وجاءوا على ظهور الخيل ، وقد شرعوا سيوفهم ، وافترض بعض الذين فى معسكر المسلمين أنهم مغيرون من الأعداء، ولكن الخليفة الذى اتسم بالحكمة كعادته دائمًا استطاع أن يؤكد لهم أنهم ما جاءوا سوى للتفاوض . وفحوى نص المعاهدة التى تم التوصل إليها كما وصلنا :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيِّزها ، ولا من صليبهم، ولا شىء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منهم الروم واللهوت (اللصوص) ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ؛ ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلّى بيعهم وصُلُبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى صلبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لايؤخذ منهم شىء

حتى يُحصد حصادهم ؛ وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبى سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة»[٥٢](*).

وسواء كان هذا هو نص الصلح الذى وافق عليه عمر بن الخطاب، أو اصطناعًا قديمًا ، فهو أمر لا يمكننا أن نتأكد منه، بيد أنه يعطى انطباعًا عن الكيفية التى كان المسلمون يستجيبون بها لرعاياهم المسيحيين فى البلاد المفتوحة حديثا . ولاشك فى أن حقيقة أنه يحمل اسم عمر بن الخطاب تضيف إليه وزنًا وحُجيةً . والتأكيد على ضمان حرية الديانة أمر لايثير الدهشة ، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا المكانة الخاصة لبيت المقدس. ولكن الذى لم يكن متوقعًا هو اشتراط عدم السماح لليهود بالاستقرار فى المدينة. فقد كان هذا المنع من ملامح القانون الرومانى وحقيقة أن مصدرًا إسلاميًا يسجلها يوحى بأن المفاوضين المسيحيين كانوا متشددين . وبعض العبارات تلقى ضوءًا مثيرًا على ظروف المدينة . إذ يشير الشرط الخاص برحيل الموظفين البيزنطيين (الروم) إلى هجرة الطبقة العليا وطبقة الموظفين، والفقرات التى تتناول أهل البلاد الذين جاءوا إلى المدينة انعكاس واضح للظروف المعاصرة.

ثم قام عمر بن الخطاب بزيارة المدينة. وأكمل رواية عن زيارته للمدينة وردت فى مؤرخة المؤرخ المسيحى العربى سعيد بن البطريق الذى يعرف أيضا باسم أوتيخا Eutychius[٥٣] وقد كتب فى القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، وحفظ لنا مأثورات قُصد بها أن توضح كيف أن عمر بن الخطاب قد ضمن وضع المسيحيين فى المدينة المقدسة. ووفقا لروايته ، فإنه صفرونيوس رحب بالخليفة عمر فى المدينة وأعطى الناس الأمان على أنفسهم وممتلكاتهم مع ضمان حرية العقيدة . وعندما حان وقت الصلاة اقترح البطريرك عليه أن يصلى فى كنيسة الضريح المقدس، ولكن عمر بن الخطاب رفض لأنه قال إنه لو فعل هذا ، فإن المسلمين سيتخذونها مسجدا وسوف يخسرها

(*) النص من الطبرى ، ج٣ ، ص٦٠٩ . (المترجم)

المسيحيون . ثم أصدر مرسوماً يمنع فيه المسلمين من الصلاة فى أجزاء الكنيسة ، ونتيجة لهذا بقيت الكنيسة بأيدى النصارى منذ ذلك الحين. ثم طلب عمر موضعاً لبناء مسجد وأخذه البطريرك بيده إلى الصخرة التى كان يقوم عليها معبد هيرود . ومع الواضح أن الرواية قد صيغت لبيان أن مكانة المسيحيين فى القدس كانت قائمة على أساس من سلطة عمر بن الخطاب نفسه والتى لايمكن لأحد أن يشكك فيها .

وفى الموروث العربى أن عمر بن الخطاب كان يرشده «كعب الأحبار» ، وهو يهودى اعتنق الدين الإسلامى ويقال إنه قدم الكثير من القصص والمأثورات عن اليهود فى الديانة الجديدة(*). وفى إجابة عن سؤال الخليفة، اقترح كعب أن الصخرة ، التى تقوم فى وسط الساحة ، يجب أن تكون قبلة صلاتهم فى ذلك اليوم، ولكن عمر بن الخطاب قد رفض هذا وأوضح أن الله قد احتفظ بدور القبلة للكعبة فى مكة. فقد كان الخليفة واعياً تماماً أن الموقع علامة على مكان المعبد اليهودى الذى كان الرومان قد دمروه بعد التمرد اليهودى سنة ٧٠ ميلادية وترك ليكون مكاناً للقمامة فى العصور البيزنطية . وبدأ ينظف المكان بنفسه ثم تبعه الناس فى ذلك. وربما يكون قد أمر بإقامة مكان بسيط للصلاة. ومن المؤكد أنه حينما زار الحاج المسيحى الأوربى أركولف Arculf مبنى قبة الصخرة فى سنة ٦٨٥م، وجد مكاناً أساسياً للعبادة هناك. وكان لهذا السبب أنه يشار إلى قبة الصخرة أحيانا على سبيل الخطأ بأنها مسجد عمر(**).

وبحلول سنة ٦٤٠م كانت بلاد الشام بأسرها، باستثناء مدينة أو مدينتين على الساحل قد دخلت تحت الحكم الإسلامى كان الحد الشمالى للحكم الإسلامى قد أرسى فى أنطاكية، ومدينة Cyrrhus القديمة ومنبج . وتم وضع الحاميات وانضم إليهم

(*) هذه صياغة غير صحيحة من جانب المؤلف ؛ فالحقيقة أن المأثورات التى نقلت عن كعب الأخبار والتى تعرف بالإسرائيليات قد تسربت إلى بعض كتب التفسير والحديث ولكنها لم تدخل فى صلب الديانة الإسلامية التى حددها القرآن الكريم، وربما كانت ثقافة المؤلف هى التى جعلته يخلط الأمور على هذا النحو . (المترجم) .

(**) هذا الإصرار على مسألة المعبد اليهودى تحت قبة الصخرة يثير العجب . (المترجم)

الأهالى المحليين لكى يخبروا المسلمين عن أى قوات بيزنطية تقترب . وعلى أية حال ، كان البيزنطيون الذين أنهكتهم الهزيمة ، فضلاً عن موت هرقل فى فبراير ٦٤١م، والصراعات على العرش التى أعقبته ، غير قادرين على شن أى هجوم مضاد.

وقد فتح اتمام غزو بلاد الشام الطريق أمام جيوش المسلمين لكى تعبر نهر الفرات وتبدأ فتح الجزيرة . وقد استخدم مصطلح «الجزيرة» منذ القرن السابع الميلادى ليصف الأرض بين دجلة والفرات فى سوريا والعراق حاليًا. وكانت حدود الجزيرة من الشمال جبال طوروس جنوب شرق الأناضول ، وكانت تلك الحدود بشكل ما على امتداد الحدود التركية الحديثة. والأرض فى معظمها سهول مسطحة مفتوحة وصحراء. وقد لاحظ مؤرخ حديث أن : « الجزيرة تشبه البحر المتوسط إلى حد ما ، عبارة عن محيط من الاستبس ترصعها مجموعات من وديان الأنهار والتلال وقد استقرت بشكل متفاوت على شواطئها»(٥٤). وهناك وحدة طبيعية فى هذه المنطقة كما أن الاتصالات سريعة وسهلة ، ولكن فى وقت الفتح الإسلامى كانت مقسمة بين البيزنطيين فى الغرب والساسانيين فى الشرق، مع الحدود قرب مدينة نصيبين القديمة ، بما يحاذى الحدود العراقية – السورية الحديثة بقدر أو بآخر. هذا التقسيم حدد الطريق الذى تم فتحها من خلاله، إذ استولت قوات المسلمين القادمة من بلاد الشام على الأراضى الواقعة على الجانب البيزنطى من الحدود ، على حين استولت القوات القادمة من العراق على الأراضى التى كانت تحت حكم الساسانيين فيما قبل والواقعة على الجانب الشرقى.

وكانت هناك فى وديان الأنهار عدة مدن قديمة كانت أشهرها مدينة الرها. وكانت الرها أحد مراكز المسيحية الباكرة . ففى القرن الميلادى الأول يقال إن ملكها آنذاك الملك أبجار Abgar كان أول ملك فى العالم يعتنق المسيحية . وكانت كاتدرائيتها الكبيرة، التى لم يبق منها شىء الآن، أحد المبانى الأكثر فخامة فى العالم المسيحى الشرقى . كما كانت مركزًا سياسيًا مهمًا ، وكان هرقل قد اتخذها قاعدة له فى المراحل الأخيرة من حملته فى بلاد الشام.

كان فتح الجزيرة مرحلة مهمة فى تقوية الحكم الإسلامى فى منطقة الهلال الخصيب . فلو أنها بقيت بأيدى البيزنطيين لشكلت تهديداً رئيسياً للشام والعراق. وعلى الرغم من أهميتها الاستراتيجية وعراقة مدنها ، فإن فتح الجزيرة قد سجل بأسلوب موجز تماماً فى المصادر العربية ، وتُبدى مثل هذه الروايات اهتماماً أكثر بشروط الاستسلام من اهتمامها بمجرى المعارك والحملات العسكرية(٥٥). ومعظمها تتفق على أن الفتح كان تحت قيادة عياض بن غنم الذى أمره الخليفة عمر بن الخطاب بقيادة قوة من عرب الشام عبر نهر الفرات . ووفقاً لإحدى الروايات لم يكن معه سوى خمسة آلاف رجل(٥٦)، ولكن على الرغم من هذه الأعداد الصغيرة لم يواجه سوى القليل من المقاومة الجدية. ويبدو أن انسحاب البيزنطيين ترك الأهالى المحليين أمام خيار الاستسلام بشروط سهلة نسبية قدمها لهم العرب. وحتى فى آمد وديار بكر التى كانت أسوار مدينتها القوية تمثل أحد أمجاد العمارة العسكرية فى العصور القديمة والعصور الوسطى، يبدو أنه لم تكن هناك مقاومة على الإطلاق، ويصدق الأمر نفسه على القلعة الكبيرة التى كان البيزنطيون قد بنوها فى القرن السادس الميلادى فى دارا لدفع الفُرس وهجماتهم(٥٧). ويبدو أن الرها قد استسلمت بسرعة بشرط أن يحتفظ المسيحيون بكاتدرائيتهم ولكنهم اتفقوا على ألا يبنوا أية كنائس جديدة وألا يساعدوا أعداء المسلمين. كذلك سقطت مدينة الرقة على نهر الفرات بعد مقاومة قصيرة . ولايمكن التأكد من الطريق الذى سار فيه جيش عياض وهو يجوب هذه الأنحاء ويقبل استسلام المدن الصغيرة ، ولكن يبدو أنه ربما أنهى رحلته بالإغارة على امتداد الطريق القديم الذى كان يؤدى إلى أرمينيا قبل أن يتوقف عند تبليس . ثم عاد إلى بلاد الشام، حيث وافته المنية.

كانت الجيوش التى فتحت بلاد الشام قد تم تجنيدها من الحجاز. وعلى أية حال، فلم ينتج عن هذا تدفق مهاجرين جدد من شبه الجزيرة العربية. وكانت قريش وحلفاؤها من النخبة المسلمة يعرفون بلاد الشام جيداً وأرادوا السيطرة على مواردها . ولم يكونوا يريدون تقاسمها مع جماهير البدو الفقراء . وقد تشجع هؤلاء على الانتقال إلى العراق بدلاً من ذلك. ويمكن أن يقال فى لغة الجيش البريطانى إن بلاد الشام كانت للضباط، وأن العراق كانت للرتب الأخرى. ولم يؤسسوا مدناً جديدة على نحو ما حدث

فيما بعد فى العراق ومصر . ذلك أن كل المدن التى كانت مهمة تحت الحكم الإسلامى كانت مهمة فى العصور الرومانية (على الرغم من أن بعض المدن، مثل سكيثوبوليس، التى كانت مهمة فى العصر الرومانى، تدهورت واختلفت بالفعل فى الفترة الإسلامية) . وفى إحدى المراحل يبدو أنه كان هناك مشروع لتأسيس مدينة جديدة فى الجابية بمرتفعات الجولان، التى كانت أرض مخيمات الصيف للغساسنة . وكان فى هذا المكان أن جاء الخليفة عمر بن الخطاب لمقابلة قادة الجيش المنتصر أثناء زيارته لبلاد الشام. ولكن الجابية بقيت كما هى ، أرض مخيمات صيفية : ولم يتم بناء أى مسجد هناك ، ولا أى قصر للحكم ، كما لم يتم منح أى خطط للقبائل . وبدلاً من ذلك، يبدو أن المسلمين قد فضلوا الاستقرار فى المدن الموجودة. وقد رأينا كيف أن مساكن حمص قد أبيحت لسكناهم . وفى قنسرين وحلب كانت الضواحى البدوية الحقيقية قد بُنيت خارج أسوار المدينتين القديمتين .

ومن ناحية أخرى كان هذا ممكنًا بسبب أن قسمًا من النخبة البيزنطية كانوا قد هربوا إلى القسطنطينية ، أو مناطق أبعد منها غربًا، مما ترك فراغًا فى المدن . فبعد سقوط دمشق غادر الكثير من الناس المدينة للانضمام إلى هرقل(٥٨)، وتمكن المسلمون البارزون من الإقامة بالمدينة: فقد كان عمرو بن العاص يمتلك عدة منازل وضياع فى دمشق وفلسطين . وقد افترض الصلح الذى عقده عمر بن الخطاب مع مواطنى بيت المقدس أن هناك عناصر من البيزنطيين سيرحلون ، سواء طواعية أم غصبًا . ويبدو أيضا كما لو أن مناطق كثيرة فى الشام قد عانت نقص السكان بسبب الوباء والحرب كما أن الفاتحين المسلمين طردوا الكثير من السكان الروم خارج المدن الساحلية(٥٩). وكانت هناك صعوبة فى العثور على الرجال اللازمين للحاميات فى المدن الموانئ على ساحل البحر المتوسط. وقد اضطر معاوية لتسكين اليهود فى طرابلس، لأنه لم يكن هناك مسلم يمكن إقناعه بالإقامة فيها . كما استقر المسلمون فى القرى حول طبرية وفى بعض الأحيان كانوا يمنحون الأراضى المهجورة بشرط استزراعها . وليس هناك دليل على حدوث هجرات من نوع الهجرات التى شهدها العراق .

ويمكن أن نعرف شيئًا عن العلاقة اليومية بين القبائل العربية وسكان القرى والمدن من خلال مجموعة من البرديات ثنائية اللغة، اليونانية والعربية ، عُثر عليها فى بلدة نصَّانًا القديمة بالنجف(٦٠). وبعض هذه الوثائق تحمل أوامر للسكان المسيحيين فى البلدة بأن يقدموا لبدو المنطقة المؤن من القمح وزيت الزيتون ، والأموال أحيانًا . ويبدو أن الدفع كان لشيوخ القبائل مباشرة ؛ إذ لم تكن هناك إدارة معقدة . ويبدو أن مسألة جمع المؤن وتقسيم الأعباء قد تركت لتقدير السكان المحليين. وتكشف الوثائق التى يرجع تاريخها إلى عامى ٦٧٤- ٦٧٥م، أى بعد جيل من الفتح ، عن أن الاحتلال العربى كان بسيطا وغير رسمى بشكل ما .

كانت ثمة نتيجة أخرى لنموذج الاستقرار العربى فى بلاد الشام . ففى العراق ومصر كان المسلمون الذين توطنوا فى المدن يعتمدون على الدولة مباشرة فى معاشهم ، وغالبًا ما كانت تلك وسيلتهم الوحيدة لكسب عيشهم . أما فى الشام، على النقيض ، فكان كثير من أبناء النخبة الجديدة لهم من الممتلكات ما يمكنهم من العيش على عوائدها . وفى غضون جيل كان أبناء النخبة المسلمة فى بلاد الشام يتجهون إلى حياة الرفاهية، ويبنون منازل فاخرة فى الريف، يبدو أنها لم تكن معروفة حقًا فى العراق أو مصر.

إذن، فلو لم يكن ثمة تدفق ضخم لهجرات العرب لبلاد الشام بحيث يزيحون الحضارة اليونانية الرومانية جانبًا ، فما الذى كان سيتغير بالفعل نتيجة الفتوح الإسلامية؟ كانت قمة جهاز الحكم تحت سيطرة المسلمين المتحدثين بالعربية، وهو المستوى الأكثر وضوحًا ، بيد أن النظرية المتأنية تكشف عن أن هذا التغيير لم يكن دراميًا على ما قد يبدو للوهلة الأولى. فعلى مدى نصف القرن الأول، استمرت الإدارة تستخدم اللغة اليونانية ، وكان عدد كبير من الموظفين من المسيحيين المحليين. وكانت هناك ديانة نخبة جديدة بيد أنه يبدو أن تأثيرها على البيئة القائمة كان قليلاً . ففى العراق فى المدن الجديدة الكوفة والبصرة ، كان المسجد يقوم فى قلب المدينة الإسلامية ؛ وفى دمشق فى الوقت نفسه كان على المسلمين أن يقنعوا بنصيبهم الذى كان نصف الكنيسة الكاتدرائية بمركز المدينة باعتباره بديلاً مؤقتًا .

وهناك قليل من الأدلة ، أيضا، على تغلغل البدو فى الريف. ويبدو أن الانطباع السائد بأنه نجم عن الفتح العربى قدوم جحافل من البدو الذين دخلوا البلاد ونهبوا المناطق المستقرة انطباع خاطئ فى عمومه، على الرغم من أنه ربما كانت هناك حوادث عنف وتدمير فى سياق الغزوات . وفى هذه المناطق الهامشية الهشَّة مثل مناطق الاستبس الشامية شرق حمص ، وشرق الأردن والنقب جنوب فلسطين ، وهى مناطق حيث كانت تتغير الحدود بين الأراضى المزروعة ومراعى البدو ، وتتبدل بحسب التغيرات السياسية والثقافية ، يوحى الدليل بأن القرن الأول من الحكم الإسلامى شهد توسعًا فى الزراعة المستقرة . ولم يحدث حتى سنة ٧٥٠م، عندما تمت الإطاحة بالأمويين الذين ارتكز حكمهم على بلاد الشام على أيدى العباسيين الذين كانت قاعدتهم فى العراق، أن تراجعت حدود مناطق الاستقرار وتوسعت مناطق البدو .

وعلى أية حال ، فإن الفتح الإسلامى لبلاد الشام كانت له آثار عميقة على تاريخ المنطقة فى المدى الطويل. فقد أنهى ما كاد يقرب من ألف سنة من حكم الناطقين باليونانية والروابط القائمة مع عالم البحر المتوسط. ومنذ هذه النقطة فصاعداً ، لم تعد العلاقات الأهم مع روما أو القسطنطينية وإنما مع مكة والمدينة، وفيما بعد مع بغداد أو القاهرة . ولم يكن ممكنا ظهور الإسلام باعتباره الدين السائد واللغة العربية لغة عالمية تقريباً بدون الفتح . هذه التغيرات العميقة فى اللغة والثقافة ربما تكون قد استغرقت بعض الوقت بيد أنها لم تكن لتحدث بدون الفتوح العسكرية التى جرت فى ثلاثينيات القرن السابع الميلادى .

الهـــوامش

A. Cameron, 'Cyprus at the time of the Arab conquests', Cyprus Historical Review (١) 1 (1992): 27-49, reprinted in eadem. Changing Cultures in Early Byzantium (Aldershot, 1996), VI.

Baladhuri, Futuh al- Buldan, ed. M.j, de Goeje (Leiden, 1866, repr. Leiden. 1968), (٢) p. 129.

Tabari, 'Ta'rikh I, p. 2156. (٣)

Donner, Early Islamic Conquests, p. 119. (٤)

(٥) عن هذا الترتيب الزمنى على مؤرخة ٧٢٤م انظر :

Donner, Early Islamic Cmquests, p. 126; Baladhuri, Futuh, p. 109.

'Dcictrina.Iacobi Nuper Baptizati' , ed. with French trans. V. Deroche in Travaux: (٦) et Memoires College de France, Centre de recherche d'histoire et civilisation de Bvzance) 11 (1991); 47-273, cap. V, 16 (pp. 208-9).

(٧) انظر :

N. M, El Cheikh, Byzantium Viewed by the Arabs (Cambridge, MA, 2004), pp. 39-54.

Tabari, Tar'ikh, I pp. 1561-2. (٨)

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2108-25, Baladhuri, Futuh, pp. 110-12, Ibn Athcam al-Kufi, (٩) Kitab al-Futuh, ed. S. A. Bukhari, 7 vols. (Hyderabad, 1974), vol. I, pp. 132-4 al-Ya 'qubi, Ta'rikh, ed. M. Hloutsma, 2 vols. (Leiden, 1883), vol. U, pp. 133-4.

See Donner, Early Islamic Conquests pp, 119-27 for the best discus-sion. (١٠)

Tabari, Ta'rikh, b, pp. 2113-14. (١١)

P. Crone, 'Khalid b. al-Walid', Encyclopaedia of Islam, 2nd edn. (١٢)

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2097, 2114-5 ; Baladhuri, Futflh, p. 112. (١٣)

(١٤) هذه الرواية قائمة على أساس الترتيب الزمنى الذى كتبه ابن إسحق والواقدى ، وهما اثنان من أهم مصادر القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى وقد وصفهما دونر :

Doner, Early Islamic Conquests, pp. 128-34.

وعن ترتيبات زمنية أخرى انظر :

Ibid., pp. 134-9 (Sayf b. Umar) and pp. 139-420.

(١٥) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2398-401.

(١٦) Fredegar, Thr Fourth Book of the Chronicle : of Fredegar with its Continuations, trans. J. M. Wallace-Hadrill (London, 1960), p. 55.

(١٧) Sebeos, The Armenian History, trans. R. W. Thomson, with notes by J. Howard-Johnston and T. Greenwood, 2 vols. (Liverpool, 1999), I, p. 97.

(١٨) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2145-6, 2157.

(١٩) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2152.

(٢٠) Baladhuri, Futuh, p. 121.

(٢١) Tabari, Ta'rikh, 1, p. 2154.

(٢٢) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2393.

(٢٣) انظر مثلا :

Tabari, Ta'rikh, I,p.2099.

(٢٤) W. E. Kaegi, Byzantium and the Early Islamic Conquests (Cambridge, 1992), p. 127.

(٢٥) Donner, Early Islamic Conquests, p. 133. Kaegi, Byzantium, p. 121,

يقول إن ذروة المعركة كانت فى يوم ٢٠ أغسطس دون الإشارة لأى مصادر .

(٢٦) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2091.

(٢٧) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2091-2.

(٢٨) انظر :

Caetani, Annali dell'Islam (Milan, 1905-26), III, pp. 491-613, and the discussion in Kaegi, Byzantium, pp. 122-3, esp. n. 23.

(٢٩) الرواية التالية على أساس :

Kaegi, Byzantium, pp. 119-22 . and the map on p. 113.

(٣٠) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2099.

(٣١) Tahari, Ta'rikh, I, p. 2092.

(٣٢) Tahari, Ta'rikh, I, p. 2100.

(٣٣) Fredegar, Chronicle, p. 55.

(٣٤) Quoted in Kaegi, Byzantium, p. 141.

(٣٥) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2390-93; Baladhuri, Futuh, pp. 130-31.

عن سقوط حمص .

(٣٦) Baladhuri, Futuh, p. 131.

(٣٧) Baiadhuri, Futuh, p. 131 and Yaqut, Mucjam al-Buldan, ed. F. Wtistenfeld (Leipzig, 1886), 'Horns'.

(٣٨) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2393-5.

(٣٩) Baladhuri, Futuh, pp. 139-40.

(٤٠) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2396.

(٤١) Baladuuri, Futuh, p. 137.

(٤٢) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2396.

(٤٣) Michael the Syrian, Chronicle, ed. with French trans. J.-B. Chabot, vols. (Paris, 1890-1924), II, p. 424.

(٤٤) Baladhuri, Futuh. p. 131:

المقلس (مفردها مقلس) الذى يضرب الدُف ويقابل أو يمشى أمام الملوك أو غيرهم من الرجال العظماء مع غيره من الأدوات الموسيقية فى مناسبات النصر .

(٤٥) أذرعات القديمة :

Baladhuri, Futuh, p. 139.

(٤٦) Baladhuri, Futuh, p. 142.

(٤٧) Baladhuri, Futuh, pp. 132-3.

(٤٨) Baladhuri, Futuh, p. 127.

(٤٩) عن الخريطة انظر :

H, Donner, The Mosaic Map of Madaba: An introductory guide (Kampcn, 1992).

(٥٠) Translated in R. Iloyland, seeing Islam as Others Saw It: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zuroastrian Writings on Early Islam (Princeton, NJ, 1997), pp-72-3 .

(٥١) Donner, Early Islamic Conquests, pp.151-2.

(٥٢) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2405-6.

(٥٣) Sacid ibn Batriq, Das Annaleniwerk des Eutychios von Alexandrien, ed. M. Breydyin Corpus Scriptorum Christianoum Orientalium, vol. 471 Scriptores Arabici, t. 44 (Leuven, 1985); sec also R. L. Wilken, The Land Called Holy: Palestine in Christian History and Thought (New Haven, CT, 1992), PP.233-9.

(٥٤) C. F. Robinson, Empire and Elites after the Muslim Conquest: The Transformation of Nothern Mesopotamia (Cambridge, 2000), p. 34.

(٥٥) On the sources for the conquest and the problems they raise, see Robinson, Empire and Elites, pp. 1-32.

(٥٦) Baladhuri, Futuh, pp. 172-3.

(٥٧) Bsiladhuri, Futuh, p. 176.

(٥٨) Baladhuri, Futuh, p. 123.

(٥٩) Baladhuri, Futuh, p. 126.

(٦٠) عن الوثائق انظر :

C. J. Kraemer, J r, Excavations at Nessana, vol. 3: Non-Literary Papyri (Princeton, NJ, 1958), pp. 175-97.